الخط العربي

في كتابات الرحالة الغربيين

د. علي عفيفي علي غازي

كتاب المجلة العربية

252

الخط العربي
في كتابات الرحالة الغربيين

د. علي عفيفي علي غازي

كتاب المجلة العربية
252

المجلة العربية

رئيس التحرير
محمد بن عبدالله السيف

الرياض. طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين). شارع المنفلوطي
هاتف: 4777943. 4767345 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com
info@arabicmagazine.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ح غازي، علي عفيفي
الخط العربي في كتابات الرحالة الغربيين. / علي عفيفي غازي .- الرياض، 1438هـ
128ص؛ 14*21.سم.- (كتاب المجلة العربية؛ 252)
ردمك: 978-603-8204-31-3
1 - الخط العربي 2 - الرحالة الغربيون أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي 051 1438 / 9498

رقم الإيداع: 1438 / 9498
ردمك: 978-603-8204-31-3

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

(سورَة القلم: الآية 1)

إهداء

إلى كل من علمني علماً
إلى كل من كتبني حرفاً
إلى كل من أسطرني خطاً
إلى كل من أهداني قلماً
أهدي

المقدمة

يُنظر إلى الخط العربي باعتباره مسيرة نابضة بمشاعر الإنسان المسلم، توزعت على رقعة العالم الإسلامي؛ لتكون خير شاهدٍ على تاريخ المسلمين وحضارتهم. ولعل أهم ما يُميز مسيرة الحرف العربي أنها رحلة وجدانية لتاريخ المسلمين، تعطي فكرة جيدة عن طبيعة الدولة الإسلامية وأهدافها وأساليبها. إذ يحظى الخط العربي بمنزلة عالية عند العرب والمسلمين، ليس فقط لعلاقته الوطيدة بالقرآن الكريم؛ بل لأنه الصورة المرئية للغة العربية التي افتخر العرب بها، ونظموا أشعارهم، ورووا أخبارهم. وكان القرآن الكريم السبب في تجويد الزخارف والخطوط العربية، حيث يرى فيه العرب والمسلمون فناً يُبعدهم عن الوثنية والتماثيل والصور، فاستلهموا من النباتات وفروعها وأوراقها أنماطاً من الزخرفة الجميلة، التي امتازت بالتثني والدوران والإيقاع الموسيقي، والتكرار والتوافق الفني، وكذلك الوحدات الهندسية الرائعة.

يلعب الخط العربي دوراً في التربية الإسلامية، ويتصدى للأصول الفكرية الكامنة وراء مناهج التعليم؛ إذ يحتل مكان الصدارة بين الفنون الإسلامية؛ لأنه من الفنون المتطورة عند المسلمين، وخير شاهد على براعتهم، إذ شهد تطوراً عظيماً، ونهضة كبيرة على امتداد العصور، وفي مختلف ديار الإسلام، من مكة المكرمة إلى غرناطة وإستانبول وشيراز وغيرها. وترك تأثيره على الفنون التجريدية الغربية[1]، فكان هو الفن العربي الأصيل بحق، وجوهر وحدة الفن الإسلامي[2]، وأحد الجذور الأساسية التي تفرعت منها

(1) ألبرت تايلا: (الحروف الهجائية في الزخرفة الألمانية الحديثة)، مجلة فكر وفن، العدد الثالث، (1964)، ص 52-55؛ زكي محمد حسن: (تراث الفنون الإسلامية في البلقان وأوروبا الوسطى)، مجلة الكتاب، المجلد الثاني، الجزء العاشر، (أغسطس 1946)، ص 545-553.

(2) زكي محمد حسن: (جوهر الفنون الإسلامية)، مجلة الكتاب، المجلد الأول، الجزء الأول، (نوفمبر

الفنون الإســلامية، وأهم العوامل المحققة لوحدتها على اختلاف العصــور والأقطار[1].

تلتقــي في الخــط العربي الأبعــاد الزمانية؛ لأنه يُمثل معظــم فترات التاريخ الإســلامي. والمكانية؛ لأنه يشمل الرقعة الإســلامية الواسعة. والموضوعية؛ لأنه يُشكِّل مجالات الفن الإسلامي في صورة تميز وحدة الأمة الإسلامية في عقيدتها وتاريخها وعلومها وفنونها[2]. وكان له دور بارز في النهوض بالحركة العلمية والثقافية في العالم الإســلامي، وإنشــاء المكتبات العامة وانتشــارها وتطورها[3]، وزخرفة الجوامع والمساجد والمدارس، والبيمارستانات والربط والخانقانــات، وتنظيــم حركة الدولــة، وتنظيــم الكتب والمكتبــات الوقفية وإدارتهــا[4]، فمن خلال هذا الفن نتعرف على الوضــع الثقافي والحضــاري المتميــز لمراحل التاريخ العربي والإســلامي، كما نتعرف على الأعلام الذين أســهموا في المســيرة الحضــارية للكتاب الإســلامي. وكان، ولا يزال، للخط العربي دور مُهم في بيان الجوانب الأخلاقية في الفكر الإســلامي، وأصــالة النظريــة الأخلاقيــة الإســلامية، وحفظ مــا دون في التراث من تصــورات فكرية راقية ومتكاملة.

يتجلى تقدير العرب والمسلمين للكتابة والخط في ما يرد عنهم من نثر ونظم في الإشــادة بالخــط الجميل، وفي كثرة التشــبيه في الأدب بالخــط وأدواته،

1945)، ص 26–38.

(1) حســن الباشا: (أثر العروبة والإسلام في نشأة فنون العمارة والزخرفة الإسلامية)، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الأولى، (ذي الحجة 1395هـ/ ديسمبر 1975)، ص 82.

(2) لؤي داخل: (فن الزخرفة الإسلامية)، مجلة فكر وفن، العدد 56، (1993)، ص 67، 68.

(3) صــلاح أحمد الطنوبي: (المكتبات في الإســلام)، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 271، (رجب 1407هـ/ مارس 1987م)، ص 48–54.

(4) ربحي مصــطفى عليان: المكتبات في الحضــارة العربية الإســلامية، (عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 1999)، ص 45–50.

وبالحــروف وأشــكالها[1]، وبالــغ البعضـ في تقديــر الخط حتــى زعموا أن للخطــوط أســراراً وقوى خفية، وربطوا بين هذه القوى وبين نســب الحروف العددية، وخصــوا كل حرف بطبيعة من الطبائــع، وقرنوا بين عالم الطبيعة والحــروف[2]. وبذل العرب جُهوداً متواصــلة في ســبيل الوصــول بالخط إلى مستوى فني رفيع، كما أسهم الخطاط العربي في إخراج معظم التُحف الفنية الإسلامية سواء في مجال العمارة أو الفنون التطبيقية أو التشكيلية[3]، إذ لم يقتصــر عمل الخطاطين علــى الكتابة على الورق بل امتــد إلى الكتابة على التحف الفنية والمعمارية بواسطة التلوين والترصيع والحفر سواء في الجص أو الخشب أو الحجر أو غير ذلك من مواد البناء والزخرفة.[4]

يتطــور فــن الخــط العربي في إطــار العلاقــة القائمــة بينه وبين العناصــر الفنية الأخرى، التي تُشــكِّل الرؤية الجمالية للأمة الإســلامية، ويلعب دوراً في العلــوم والعمــارة والديكــور، والخزف، والزجــاج والمنســوجات، والعاج والمجوهــرات، والمعادن النفيســة، وهنــاك علاقة وطيدة تربطــه بالإعراب والرقش والزخرفة. ففي رحم هذا الفن ولدت الزخرفة الإســلامية، وحوله نسجت أصــولها الفكرية والدينية، وضــروبها الكتابية والهندسية والنباتية والحيوانيــة والآدمية. فظهــرت مقرونة به على الأســلحة بأنواعها، والحلي

(1) محمد بن موســى بن علي الشــافعي المعروف بابن البصيص: شرح قصــيدة ابن البواب في علم صناعة الكتاب، يوسف ذنون (تحقيق)، (بيروت: دار النوادر، 2008)، ص 6، 7.

(2) طارق بن ســعيد القحطاني: أســرار الحروف وحســاب الجُمّل، رســالة ماجســتير غير منشــورة، (مكة المكرمة: كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، 2009)، ص 20–23؛ سيد حسب الله: (الحروف العربية وعلاقتها بالحســاب)، مجلة الدارة، العدد الثالث، الســنة الخامســة، (ربيع الثاني 1400هـ/ مارس 1980)، ص 139–150.

(3) ســوزان شــكرون: (علاقة الزخرفــة والحروفية بالفنــون التشــكيلية في الغرب والعــالم العربي)، مجلة العربي، العدد 635، (شوال 1432هـ/ أكتوبر 2011م)، ص –122 129.

(4) عبدالرحمــن بن خلدون: مقدمة العلامة ابن خلدون، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى بشــارع محمد علي، د. ت.)، ص 561–592.

والجواهر، ومواد الاستخدام اليومي كالصحاف والعلب والمباخر، والمحابر وأدوات الكتابة وغيرها؛ في صورة تعكس التقنيات التي استخدمها المسلمون، وتوضح أنواع الزخرفة والتزويق، التي أبرزت اهتمام المسلمين بالكتابة والخط، خاصة المخطوطات[1].

يبرع العرب والمسلمون في فن الخط العربي، ذلك الفن العربي الإسلامي الأصيل، ويتوارثونه كفن ومهنة، وتؤكد ذلك المخطوطات وأدوات الخط، التي تعج بها المتاحف حول العالم، والأماكن الأثرية والبيوت والمساجد، حيث يُمكن مُشاهدة إبداعاتهم الرائعة في هذا الفن، الذي زينته آيات القرآن الكريم، وروائع الحديث الشريف، والحكم الخالدة الشهيرة ذات المعاني الكبيرة، التي تحضّ على مكارم الأخلاق. وزينوا به واجهات المساجد ومنابرها ومحاريبها[2]. وقد تميزوا بذكاء في استخدام الخط، فأضافوا لما كتبوا زخارف نباتية وهندسية؛ لجذب الأحاسيس، ولتكون وسيلة لتذوق معانيها، لتسمو بنفس وعين المشاهد منذ النظرة الأولى العابرة[3]. ودخل الخط العربي كعنصر زخرفي في منتجات الفنون الإسلامية المختلفة، وذلك لما له من ميزة زخرفية واضحة، وكانت التحف في بعض الأحيان تشتمل على حروف وكلمات عربية لا معنى لها، كما أن الكتابة أحياناً تصل إلى درجة الغموض بحيث يتعذر قراءتها وتفسيرها، ومن ثم كان دور الكتابة يقتصر في هذه الحالات على الزخرفة فقط.[4]

(1) محمد بوشعيب الصغير: (زخرفة المخطوطات مفخرة الحضارة الإسلامية)، جريدة الفنون، العدد 84، (ديسمبر 2007)، ص 26، 27.

(2) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1978)، ص 38.

(3) علي عفيفي علي غازي: (منهج النقد الفني للوحات الخطية)، المجلة العربية، العدد 404، (رمضان 1431هـ/ سبتمبر2010م)، ص 82–85.

(4) نجاة شاكر محمد زيدان: (أثر العقيدة الإسلامية في فن الزخرفة عند المسلمين)، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الثالثة، (صفر 1398هـ/ يناير 1978م)، ص 74–76، 82، 83.

ينظر الباحثون والدارسون والمهتمون بالتراث العربي والإسلامي إلى الخط العربي باعتباره أكثر إبداعات الحضارة العربية الإسلامية أهمية، وأكثرها شمولاً لكل مظاهرها؛ لارتباطه بكل إنجازات هذه الحضارة، وبكل ما أبدعه العرب من فنون وعلوم وآداب، إذ لم تكن هذه الحضارة ممكنة من دون كتابة عربية تدون الإنتاج، ومن دون خط عربي مرن وسلس قادر على حفظ نتاج الفكر والعلم، وتدوين ذلك بيُسر وسهولة، لهذا تكثف الإبداع في الخط العربي، وأعطى أصالة هذه الحضارة، وأثمرت شجرة الخطوط العربية الرئيسة من خلال فروعها، فأنتجت مجموعة رائعة من الخطوط الجديدة، فقد أُخذت الخطوط القديمة، وأُعيد النظر فيها، ووضعت لها القواعد والضوابط، التي مكنت من عملية انتقال الحضارة وشيوعها، وانتقال مبادئها، وأسسها إلى الآخرين.

يحفظ الخط العربي كل ما أنتجته الحضارة الإسلامية، ويُزين كل ما شيده العرب والمسلمون، ولذلك عُدّ الفن الأكثر صلة بما أبدعه العرب من إنتاج متنوع، لأنه الإنتاج الأول، الذي ازدهر مع هذه الحضارة، واعتبر أعظم إبداعاتها، وقدم لإبداعها التجسيد المادي على الورق، والجُدران، والأواني. وقد تمكن الخطاط العربي من أن يُبدل جوهرياً الكتابات السابقة له، وذلك لكي لا تضيع الكلمات وتتداخل، ولكي يُصبح الخط أكثر رشاقةً وجمالاً وانضباطاً، وهو الوسيلة الرئيسة للإبداع الفني؛ إذ إن الخطاط العربي تمرد على الأشكال التقليدية للخطوط السابقة، وجعل للخطوط العربية سماتها المميزة والمتميزة، وأضاف إليها ما يُعتبر ثورة في مجال تطور الكتابة، لهذا يُعتبر الخط هو الإنتاج العربي، الذي استطاع فيه الفنان المسلم أن يُحقق تطوراً شاملاً.

يكتسب الخط العربي خصوصيته من السماء؛ إذ يقرن الحق سبحانه

وتعالى بين العلم والكتابة في أول ما نزل من القرآن الكريم من آيات (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم) (سورة العلق، الآيتان 3، 4) وأقسم سبحانه بالقلم والكتابة في قوله: (ن والقلم وما يسطرون) (سورة القلم، الآية 1)، كما وصف سبحانه وتعالى ملائكته بأنهم (كراماً كاتبين) (سورة الانفطار، الآية 11)، وأشار إلى الخط بقوله (وما تخطه بيمينك) (سورة العنكبوت، الآية 48). فكان تدوين القرآن الكريم بالخط العربي؛ هو السبب الأول والرئيس في تطوير الكتابة العربية، ويزداد الاهتمام به مع نمو الدولة الإسلامية بظهور المخطوطات، التي تجمع بين جمال الخط، وروعة الزخرفة[1]، وفي كتابات المساجد في القاهرة، وإستانبول، وغرناطة، وبغداد، ودمشق. والخط العربي ليس مجرد حروف ورموز تؤدي معاني ودلالات؛ بل هو إلى جانب كل ذلك علم وفن له بصماته الذهنية، وقدرته الفائقة على تجسيد كل الصور، والأشكال، والمعاني، وتأتي في مقدمة أغراض فن الخط أن يُخلّد كلام الله في الصُحف، ومن هذا استمد مكانته، وقد أضفى المصحف الشريف على الخط العربي رونقاً جديداً، حيث تبارى الخطاطون في إبداع أنماط متعددة لكتابة المُصحف الشريف، وزينوه بأشكال مختلفة، وأبدعوا في إظهاره في صور تعكس قدر الاحترام والتقدير بدستور المسلمين الخالد، وهكذا ينظر المسلمون إلى الخط نظرة إكبار وتقدير، ويتذوقونه بمتعة روحية، بالإضافة إلى اللذة الجمالية[2].

ينفرد فن الخط العربي، ويتميز عن ما سواه من الفنون الإسلامية الأخرى؛ بأنه بصورته التي عرفها المسلمون، فن أصيل يختصون به، وهو

(1) خالد الأغا: (القرآن.. وإبداعات الخط العربي)، مجلة أخبار الأسبوع، العدد 351، (6 مارس 1993)، ص 84–86.

(2) كامل إبراهيم: (فن الخط العربي)، مجلة فكر وفن، العدد 38، (1983)، ص 100.

فن إسلامي خالص كان له أثره الكبير في التصوير[1]، إذ لم يكن في تراث الأمم والشعوب التي دخلها الإسلام، أو البلاد التي انتشر فيها؛ فن يُناظره، فهو خط أساسه الحرف العربي؛ بما يمتلك من إمكانيات جمالية، وبه وجد المسلم منفذاً للتعبير عمّا في طبيعته من تذوق للجمال؛ حين كان يتوجب عليه أن يُعبر عن هذه الناحية الفنية في ميدان التصوير أو تمثيل الكائنات الحية، فهو فن غني بالقيم الجمالية، والتصرفات الإبداعية، والأبعاد الحركية، والإيقاع والتكرار، والشكل التكويني، والكتلة والفراغ، وقد نشأ هذا الفن في القرن الثاني للهجرة[2]، وتطور في القرون التالية تطوراً كبيراً، وقد جاء ذلك نتيجة استخدام الشعوب الإسلامية له، فكل الشعوب التي منَ اللّه عليها بهداية الإسلام كتبت بالخط العربي، فتطور نتيجة لإسهامات العبقريات الفنية من مختلف هذه الشعوب في إثراء ذلك التراث الإسلامي بشتى علومه وفنونه، ولقي عناية فائقة في كافة البلدان الإسلامية، وتقدم على أرضها لاسيما في حواضر المدن التي تزعمت العالم الإسلامي، وشهدت مظاهر الحضارة الإسلامية.

يُمكن اعتبار الخط العربي الوليد الأول والأغنى للحضارة العربية، من دون أن يدين للفنون السابقة على الإسلام، فمرحلة الخط بعد انتشار الإسلام أصبحت عبارة عن ممارسة فنية كاملة، على اعتبار أن الخط العربي هو المقابل العربي لمكانة الصورة في الحضارات السابقة، ومحاكاته الكائنات البشرية عبر التعبير الفني والتصويري. فقد دخل الخط العربي في أروع أشكاله في زخرفة كل المجالات من كتب ومخطوطات، وقرآن كريم، وقباب ومساجد، وواجهاتها.

(1) يحيى سويلم: (بدائع الفنون الإسلامية وتجلياتها)، مجلة جريدة الفنون، العدد 82، (أكتوبر 2007)، ص 81–21.

(2) محمد حميد اللّه: (صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة)، مجلة فكر وفن، العدد الثالث، (1964)، ص 21–27.

نشأة الخط العربي

يرتبط مفهوم الزمن لدى الإنسان، منذ اللحظة الأولى التي بدأ يدب فيها على سطح كوكب الأرض، بما يجري من تغيرات في العالم الذي يعيش فيه، ومن ثم بدأ يبحث عن وسيلة لتدوين ما يمر به من أحداث؛ لأنه أدرك أنه لا غنى له عن تدوين مسيرته الحضارية على سطح هذا الكوكب منذ الأزل، ومن ثم لجأ إلى الرموز كوسيلة أولى للتعبير عن أفكاره، وتدرج إلى أن ظهرت الكتابة في مصر منذ سنة 3800 قبل الميلاد بأنواعها الثلاث: الهيروغليفي والهيراطيقي والديموطيقي[1]. وقد تطورت هذه الكتابة من كتابة صورية إلى كتابة صوتية، ثم أدائية، وأخيراً كتابة حرفية، يُشكِّل الحرف نواتها، وانتقلت الكتابة المصرية القديمة إلى الجزيرة العربية عبر الكتابة السينائية[2]، وتطورت في شمالها إلى الكتابة الكنعانية والفينيقية، والعبرية والموآبية والعمونية والآرامية، وهي الكتابة التي انبثق منها الخط اللاتيني، الذي ولدت منه جميع الخطوط المستعملة في أوروبا في الوقت الحاضر، أما في الجنوب فقد تطورت إلى الكتابة الحميرية، التي كانت تطويراً للكتابة النبطية[3].

تعود الكتابة العربية، التي تنتمي إلى عائلة الأبجديات السامية، بجذورها إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وترتبط ولادتها بميلاد الكتابة الأبجدية، التي مرت بمراحل منذ أن كانت رموزاً مرسومة للكلمات المادية، وبعدها الكلمات

---

(1) باسكال فيرنو: (الكتابات في مصر القديمة)، خالد داوود (ترجمة)، في كتاب خالد عزب (تحرير): تاريخ الكتابة من التعبير التصويري إلى الوسائط الإعلامية المتعددة، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2005)، ص 45، 48.

(2) ماهر أحمد عيسى: (لماذا تحول المصريون إلى اللغة العربية؟)، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد الأول، (يناير 2016)، ص 133.

(3) أندريه لومير: (أصل الأبجدية السامية العربية وكتابتها)، قاسم عبده قاسم (ترجمة)، في كتاب خالد عزب (تحرير)، مرجع سابق، ص 203–209.

المعنوية، وصولاً إلى المقاطع المرسومة، وتحول بعضها إلى الرموز والعلامات، التي تعتمد على الأصوات الساكنة، والمقاطع المتحركة الطويلة، مشتقة من أصغر وحدة صوتية في مقدمة الكلمات (حرفها الأول) ثم تنقلت في أرجاء الجزيرة العربية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، متطورة عن بعضها البعض، ومبتعدة عن رسوماتها الأولى، لتُصبح أول أبجدية عربية مكتوبة[1].

يولد الخط العربي في شمال جزيرة العرب بتأثير من الخطوط السائدة في العراق في بلدتَي الحيرة والأنبار المركزين الرئيسين، اللذين انبعث منهما تعليم الكتابة الخطِّية للجزيرة العربية، أو الكتابة الحضرية الخاصة بمملكة الحضر العربية، التي تشكلت في الجزيرة الفراتية[2]، ثم انتقل إلى مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف، وغيرها من المراكز الحضارية في الجزيرة العربية. وقد كان العرب قبل الإسلام يهتمون بالكتابة فاستعملوها في شؤون حياتهم كتدوين العقود، والوثائق السياسية والتجارية، والأدب والشعر، وكل جوانب الحياة. ولم تكن الأمة العربية أُميَّة بمعنى أنها تجهل القراءة والكتابة؛ فإنّ نُزول القرآن الكريم عليها بهذا العُمْق الفكري، وبهذا الأسلوب البليغ؛ يَعني أن هناك أُمة لديها القُدرة على فهمه وحَمل رسالته وتبليغها للناس أجمعين.[3]

يختلف المؤرخون وعلماء اللغة العربية حول تحديد جذور الكتابة العربية، ومن ثم نشأة الخط العربي[4]، ولكن المؤكد أنه ظهر قبل الإسلام، إذ استعمله

(1) فرانسيس ديروش: (الكتابة العربية)، محمد عبدالستار عثمان (ترجمة)، في كتاب خالد عزب (تحرير)، مرجع سابق، ص 219.

(2) فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى: الحضر مدينة الشمس، (بغداد: مديرية الآثار العامة بوزارة الإعلام، 1974)، ص 403.

(3) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بغداد: جامعة بغداد، 1993)، ج8، ص 152 وما بعدها.

(4) علي عفيفي علي غازي(نشأة وتطور الخط العربي في الإسلام)، المجلة العربية، العدد 405، (شوال

العــرب في كتابة مواثيقهم وعهودهم، وأشــعارهم ومعلقاتهم، وفي ذلك يروي البــلاذري (ت 285هـ/ 892م) عن محمد بن الســائب الكلبي والشــرقي بن القطامي، أنه (اجتمع ثلاثة نفر من طيء ببقة[1]، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن ســدرة، وعامر بن جدرة، فوضــعوا الخط، وقاســوا الهجــاء العربية على هجاء الســريانية، فتعلّمه منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلّم أهل الحيرة من أهل الأنبار، وتعلّم بشــر، أخو أكيــدر بن عبدالملك الخط من أهل الحيرة، ثم أتــى مكة في بعض شــأنه، فعلم رجلين هناك، ثم رجــلاً في الطائف، وآخر في ديار مضر، وناساً في الشام، وتعلّم الخط من الثلاثة الطائيين أيضاً رجل من طابخــة كلب، فعلّمه رجلاً من أهل وادي القرى، فأتى الوادي يثرب فأقام بها وعلم الخط قوماً من أهلها)[2]. أما ابن النديم (ت 385هـ/ 995م) فيذكر أن (أول من صــنع ذلك قوم من العرب العاربة، ومن أســمائهم أخذوا الحروف: أبجــد هوز حطي كلمن صــعفن قرســت، ثم وجــدوا بعد ذلك حروفاً ليســت من أســمائهم، وهي: الثاء والخاء، والذال والظاء، والغين والشــين، فســموها الروادف... وقال ابن عباس أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال، سكنوا الأنبار، وهم مرامر بن مرة، وأســلم بن ســدرة، وعامر بن جدرة، فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الإعجام)[3].

1431هـ/ سبتمبر 2010م)، ص 21–23.

(1) بقة: حاضــرة من حواضــر العرب قبل الإسلام، تقع جنوب شرق مدينة الحضر، اكتسبت دورها وشأنها في القــرن الثالث الميــلادي زمن جذيمة الأبرش، ومن بعده الساســانيين، وخاصــة زمن ســابور الثاني (310–379م) واســتمرت أهميتهــا إلــى زمن عمرو بن هند الذي كان يدير شــؤونها زمــن أبيه المنذر (514–563م)، وقــل شــأنها بعد ذلــك مع ازدهار مدينة الأنبــار، التي تقع جنوبها. أبــو بكر أحمد بن محمد الهمداني: مختصــر كتاب البلدان، (ليدن: مطابع بريــل، 1302هـ)، ص 128؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، 1977)، ج1، ص 473.

(2) أبــو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: فتوح البلدان، عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع (تحقيق)، (بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1987)، ص 659، 660.

(3) ابن النديم: الفهرست، (بيروت: دار النوادر، 2012)، ص 45، 46.

يرى أصـحاب الرأي الأول أن نشأة الخط العربي كانت إلهية محضة، حيث إن الله عـز وجـل قد أوحى إلى آدم بطريقة الكتابـات كلها، ثم كتب بها آدم كل الكتب، وبعد زوال طوفان نوح عليه السلام أصاب كل قوم كتابهم، فكان من نصـيب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي، ويُطلق علماء الخط على هذا الاتجاه (نظرية التوقيف)[1].

يذهـب فريـق آخر إلــى أن الخط العربي اشـتُق مـن الخط المسـند، الذي يُعـرف باسـم (الخـط الحمـيري أو الجنوبـي)، وأطلقوا علـى هذا الخط اسـم (الجـزم)؛ لأنه جُـزم أو اقتطع مـن الخط الحميري، وهـذا هو رأي ابـن خلدون الذي يقـول: «وقد كان الخط العربي بالغـاً مُبالغة من الإحكام والإتقـان والجـودة في دولة التبابعة، لمـا بلغت من الحضـارة والترف، وهو المسـمى بالخط الحميري. وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة إلى المنذر نسـباء التبابعة في العصـبية، والمجددين لملـك العرب بأرض العراق. ولم يكـن الخـط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة، لقصـور ما بين الدولتين. فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك. ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش))[2].

يُرجـح الفريـق الثالـث أن الخـط العربي ما هـو إلا نتاج تطـور عن الخط النبطـي، المنحدر عن الخط الآرامي[3]، ويستشـهدون علـى ذلك من تقليد العـرب النبـط في حذف الألف من بين بعض الأسـماء والأعـلام، كما أنهم احتفظوا بنفس عدد الحروف النبطية، ونفس تركيبها الأبجدي، ويسـتدلون علـى صـدق توجههـم بالنقوش التـي ترجع إلى مـا قبل الإسـلام، والقرن

---

(1) يوسف ذنون: الكتابة وفن الخط العربي النشأة والتطور، (بيروت: دار النوادر، 2012)، ص 45، 46.

(2) عبدالرحمن بن خلدون: مصدر سابق، ص 418.

(3) محسن فتوني: موسوعة الخط العربي والزخرفة الإسلامية، (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2002)، ص 15.

الهجري الأول، ومن هذه النقوش نقش (أم الجمال) وهو عبارة عن شاهد قبر للقائد (فهر بن سالي)، ويعود تاريخه إلى 250م، وهناك نقش وجد في منطقة حوران إحدى ديار الأنباط يعود تاريخه إلى 328م، يُعرف باسم نقش (النمارة) وهو عبارة عن شاهد قبر (امرئ القيس) الملك والشاعر الشهير[1]، ثم انتقل الخط من حوران إلى الأنبار والحيرة، وقام الأنباط بإجراء بعض التعديلات على الخط الآرامي، الذي نُسب إليهم فعُرف بالخط النبطي، ثم كان لهم الفضل في نقله إلى العرب في الحجاز؛ نظراً لعلاقاتهم التجارية الوثيقة مع الجزيرة العربية[2].

يتبنى الخطاط والباحث في تاريخ الخط العربي يوسف ذنون، شيخ خطاطي الموصل، نظرية رابعة حديثة يذهب فيها إلى أن الخط العربي نشأ متأثراً بالكتابة الحضرية الخاصة بمملكة الحضر العربية، التي تشكّلت في الجزيرة الفراتية، والتي تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، ومنها انتشرت كتابتها، ولم تقتصر على الحضر، وتطورت عنها الآرامية، ويؤيد اتجاهه بإجراء مقارنات بين أشكال الحروف الحضرية والكتابة الآرامية، والحروف العربية المعاصرة، ليُدلل على اشتراك هذه الكتابة في الخصائص العامة مع الكتابات المعاصرة المتطورة عن الآرامية، ليذهب إلى جزم هذه الكتابة عن الكتابة الحضرية في رحلة الكتابة العربية المبكرة إلى بلاد الشام، وتأثيراتها المتبادلة بعد ذلك في أعراب الجزيرة العربية[3].

(1) يوسف محمد عبدالله: (صور أدبية من خلال الشواهد الأثرية في جزيرة العرب قبل الإسلام)، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد الثاني، (يونيو 2016)، ص 40.

(2) يحيى وهيب الجبوري: الخط والكتابة في الحضارة العربية، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994)، ص 22 وما بعدها.

(3) يوسف ذنون: (الكتابة الحضرية وأثرها في نشوء الكتابة العربية)، مجلة فنون إسلامية، العدد الأول، (خريف 2009)، ص 88-96.

يميل الباحث إلى الرأي الذي يقول: إن التدوين يرجع إلى أبي البشـرية آدم استشـهاداً بقوله تعالى: (وعلّم آدم الأسـماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسـماء هؤلاء إن كنتم صـادقين) (البقـرة: آية 31)، وقوله تعالى مخاطباً نبيه المصـطفى: (اقرأ باسـم ربك الذي خلق، خلق الإنسان مـن علق، اقرأ وربك الأكـرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسـان ما لم يعلم) (العلـق: الآيات1-5). ويرى أن هذا لا يتعارض مع الآراء الثلاثة السـابقة، والتـي تحتمل جميعها الصـدق، فليس من المُسـتبعد أن يكون الخط العربي في رحلـة تطوره ولـد في الجنوب متأثراً بالخط الحميري، وولد في الشـمال متأثـراً بالخط النبطي، الـذي فيما يبدو كان نتاجاً للخط الحضـري، ومن ثـم تفاعلـت كل هذه الخطوط معاً وانصـهرت في بوتقة واحدة ولدت الخط العربي المعروف حالياً.

تطور الخط العربي

يمر الخط العربي بمراحل تطور بداية من الخط المسـند، وصولاً إلى الخط العربـي الإليكـتروني في عصـر الحوسـبة، والإنترنـت والعولمـة، والحداثة والعدمية، ويطرأ عليه تغيير وتطوير؛ ليتواكب مع مستجدات كل زمان، حتى تحـول إلى فن وخط عالمي، وإليكتروني في عصـر ما بعد السـوبر حداثة[1]. وأول الخطوط العربية هو الخط المكي غير المنقوط الذي كُتبت به المصاحف في عصـر الرسـول صـلى الله عليه وسـلم، وقد ورث أهل مكة المكرمة هذا الخط (القلم) عن العصـر السـابق للإسـلام من دومة الجندل بالجوف، في شـمال شرق الجزيرة العربية، وكان يُطلق عليه قلم الجزم، فلما كُتب في

(1) يوسـف ذنـون: زينة المعنـى (الكتابة، الخـط، الزخرفة)، (الدوحـة: وزارة الثقافة والفنـون والتراث، 2015)، ص 130، 131.

مكة المكرمة أُطلق عليه (القلم المكي)[1]، وهو الخط المستمد من خط الجزم الحيري أو الأنباري، والمستنبط من الخط النبطي، خط أنباط العراق، أو من الخط الحضري، خط مدينة الحضر العراقية. وينتشر الخط العربي مع ظهور الإسلام، حيث تكثر الكتابة مع حركة الفتوحات الإسلامية، وتزداد الحاجة إلى الخطاطين؛ لكتابة المصاحف والرسائل إلى ولاة الأمصار.

يصحب الخط العربي في مساره تطوراً وإضافة، حيث أُضيفت العلامات التي ضبطت القراءة القرآنية، إذ يُكتب الخط العربي في بدايته بلا نقاط، إلى أن يقوم أبو الأسود الدؤلي (ت 69هـ/ 688م) في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان (26–86هـ/ 646–705م) بوضع النقط على الحروف المتشابهة، مثل التاء والثاء، الصاد والضاد، والعين والغين. ثم وضع بعد ذلك أبواب العطف، والنعت، والتعجب، والاستفهام. وقد يقول قائل هذا من الإملاء وليس من الخط؛ فنقول إن النقط وغيرها تدخل في الخط أيضاً، لأن الخطاط قد يتفنن بها. ويقوم الخليل بن أحمد الفراهيدي بوضع علامات الترقيم والتشكيل (الفتحة، والكسرة، والضمّة، والسكون، والشدة، والمدة، والصلة، والهمزة)، وذلك عند اختلاط العرب بالعجم بامتداد الفتوح الإسلامية، واتساع رقعة البلاد الإسلامية، فحدث الخلط واللبس في الكلمات، فكان لا بُد من وضع الشكل بالنقط، فكانوا يضعون الفتحة نقطة حمراء فوق الحرف، والكسرة نقطة حمراء أسفل الحرف، وتتكرر نقطتان في التنوين[2].

تأتي بعد ذلك مرحلة تمييز الإبهام في الحروف، حيث يقوم نصر بن عاصم الليثي (ت 89هـ/ 708م) ويحيى بن ناصر العدواني (ت 90هـ/ 709م)،

---

(1) يوسف ذنون: (الخط المكي)، مجلة حروف عربية، العدد 37، (محرم 1437هـ/ أكتوبر 2015م)، ص 4–9.

(2) أنس محمد رأفت محمد سعيد: المحاور النحوية جمع ودراسة موضوعية، إبراهيم عوض وعلي عفيفي علي غازي (تقديم)، (الدوحة: المؤلف، 2017)، ص 7–9.

في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق، بوضع نقط للحروف المتشابهة، مثل (الباء والتاء والثاء، والدال والذال، والطاء والظاء، والصاد والضاد...)، وذلك سنة 75هـ/ 694م. وأصبح على الكاتب أن يستعمل نوعين من المداد، الأسود للنقط، والأحمر للشكل. ويأتي من بعدهم الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 135هـ/ 750م) فيضع أشكالاً جديدة للضبط اللغوي، بالإضافة لبعض علامات الضبط الإقرائي، ولكنها لم تستعمل مع الخط المكي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، إلا أنها سادت بعد ذلك إلى اليوم.

يبلغ الخط العربي أوج قمته في مصر على يدي الخطاط المصري (طبطب المحرر)، وذلك في عهد أحمد بن طولون (254–270هـ/ 868–883م)، حيث كان أهل بغداد يحسدون مصر عليه، وعلى ابن عبد كان، ويقولون: «بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما»[1]. وتأتي بعد ذلك المرحلة التي ظهر فيها الخطاط الوزير (ابن مقلة) المولود سنة 272هـ/ 886م ، الذي مارس الخطاطة في سن مبكرة، وتولى التدريس في العشرين من عمره، ويُعدّ أول من وضع أسساً مكتوبة للخط تتضمن موازين وهندسة الحروف، وقدّر مقاييسها وأبعادها بالنقط وضبطها ضبطاً محكماً، وأطلق على الخط الموزون[2] مُسمى الخط المنسوب، واستخلص (ابن مقلة) أنواع الخطوط (الثلث، التوقيع، المحقق، الريحاني، الرقاع)،

---

(1) حسن أحمد محمود: الكندي المؤرخ وكتابه الولاة والقضاة، (القاهرة: الدار العربية للتأليف والترجمة، د. ت.)، ص 27.

(2) يبلغ عدد أقلام الخطوط الأصلية الموزونة اثني عشر قلماً: السجلات، الديباج، الطومار الكبير، الثلثين، الزنبور، المفتح، الحرم، المؤامرات، العهود، القصص، المعماة، الأشعار. وأوصلها البعض إلى سبعة وثلاثين خطاً ووضعوا لها أسماء خاصة بها. حبيب أفندي بيداش: الخط والخطاطون، سامية محمد جلال (ترجمة)، الصفصافي أحمد القطوري (مراجعة)، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010)، ص 103، 104.

وقـام بتجويد الخط النسـخ، الذي يُكتب به القرآن الكريم، وذلك لاتسـامه بالوضـوح، وقبول وضع الشكل على الحروف، وظل يُسهم إسهامات طيبة في هذا المجال حتى وفاته 328هـ/ 939م.

يرتقـي الخـط العربـي في تلك الفترة بفضـل اهتمـام الخلفاء العباسـيين بـه، فيظهر أكثر من عشـرين نوعاً من الكتابة المنسـوبة، الأمر الذي يجعل (ابن مقلة) يحصـر أنواع الخط، ويسـتخلص منها سـتة فقط هي: الثلث، النسـخ، التوقيع (أي الإجازة، وهو بين الثلث والنسخ)، الريحان (وهو شبيه بالثلـث)، والمحقق (وهو شـبيه بالنسـخ)، الرقـاع (وهو خليـط من الثلث والديـواني)، والرقعة[1]. ويأتي من بعده (ابن البواب) الذي يُكمل المسـيرة على نفس النهج الذي رسـمه (ابن مقلة). وفي سـنة 131هـ/746م يُرسـي الخطـاط قطبة المحـرر قواعد الخطوط الكوفية. ومن سـنة 136هـ/751م إلـى 139هـ/754م يخترع إبراهيم الشـجري خطي الثلث والثلثين. ويخترع أخوه الخطاط يوسـف الشـجري خطاً جديداً يُسـمى الخط الرياسي (خط التوقيـع حالياً)[2]. وبعد مضـي فترة من الزمان ظهر في إيران خط اسـمه (شكسـتة)، مؤسسـه شـفيعا، وأكمله درويش عبدالمجيد الطالقاني، وهذا الخـط بالرغم من انتشـاره على نطاق واسـع في إيـران اليـوم، إلا أنه يعد ملحمة كبرى وطلسماً لا يُقرأ[3].

وأخـيراً فإن ذلك الموروث المهم يجب أن يُنقـل للأبناء والأحفاد، وتمكينهم من مواصـلته. ولو سـاد توجه بالاهتمـام بالتراث العربي والفنـون العربية الإسـلامية التراثية الأصـيلة، وتمّ توجيه أسـاليب التدريس الفني نحو هذا

(1) محمد طاهر الكردي المكي: تاريخ الخط العربي وآدابه، (القاهرة: مكتبة الهلال، 1939)، ص 174.

(2) سهيلة ياسين الجبوري: الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق، (بغداد: مطبعة الزهراء، 1962)، ص 67-94.

(3) حبيب أفندي بيداش: مرجع سابق، ص 320.

التراث، وساعدت وسائل الإعلام في التوعية بجمالياته؛ لكان ذلك بداية الطريق للإحساس بالجماليات العربية، وهي الأصل الذي لا بُد أن ينبثق منه أسلوب وطابع فني عربي؛ بما يُعمق الهوية والانتماء والمواطنة في عصر ما بعد السوبر عدمية. ولعل هذه دعوة للاهتمام به لإعادة بعثه من سباته العميق، بصفته عنصراً من عناصر الهوية والتراث؛ لنُحافظ عليه ولنُواجه به العولمة الاجتياحية المذيبة للقوميات والحدود، في العالم، الساعية لتحويله إلى قرية كونية صغيرة، فما أحوجنا إلى الاهتمام بكل فروع التراث.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل،،،

2 مايو 2017

كارستن نيبور

يولد الرحالة كارستن نيبور Karsten Niebuhr، العالم الدنمركي من أصل ألماني، بمدينة لدينجورث Ludingworthe من مقاطعة لاونبرج Lauenberg، في 17 مارس 1733، لأب فلاح من سيليزيا، ويبدأ حياته فلاحاً يُساعد والده في أعمال الحقل، ثم يتجه إلى التعليم في سن الثانية والعشرين، حينما يلتحق بجامعة جوتنجن Gottingen، لدراسة الرياضيات وعلم الفلك.

يقرر ملك الدنمرك فريدريك الخامس عام 1760، بناء على مشورة يوهان ديفيد ميخائيلس أستاذ اللاهوت المسيحي، وفقه اللغة العبرية بجامعة جوتنجن، إرسال بعثة علمية مشتركة إلى بلدان الشرق الأدنى، وجنوب الجزيرة العربية، وخاصة العربية السعيدة، لتقصي الأخبار والمعلومات العلمية عنها، فاستدعى نيبور للانضمام إليها.

يركب في صباح اليوم الرابع من يناير 1761 الباخرة الدنمركية (جرينلند Greenland) خمسة علماء متخصصون في مختلف فروع المعرفة، مع خادمهم الدنمركي، وقد جمعهم أمر واحد، وحفزهم هدف صمموا على تحقيقه، مهما كانت الظروف والأحوال، مدفوعين بالأسطورة التي تحدثهم عن بلاد العرب السعيدة Arabia Felix، فاتجهوا نحو عالم مليء بالمجاهيل والمخاطر. وقد وزعت أعمال وواجبات البعثة على أعضائها، فقد تألفت من خليط من الجنسيات، فضمت عالمين دنمركيين، وآخرين ألمانيين، وسويدياً واحداً، وجميع هؤلاء من الشبان اليافعين، إذ لم يبلغ أكبرهم سناً الرابعة والثلاثين، بينما لم يتجاوز أصغرهم الثامنة والعشرين[1].

(1) علي عفيفي علي غازي: (رحالة زاروا قطر (7) كارستن نيبور)، مجلة الدانة، العدد 45 (أكتوبر 2015)، ص 52، 53.

تتكون البعثة من علماء خمسة هم: البروفيسور بيتر فردريك كريستيان فون هافن Peter Friedrich Christian van Haven (دنمركي) متخصص في فقه اللغات القديمة والدراسات الشرقية، والدكتور كريستيان كارل كرامر Cristian Carl Kramer (دنمركي) متخصص في الجراحة وعلم الحيوان، والمهندس كارستن نيبور Carsten Niebuhr (ألماني) وقد أنيطت به مسؤولية الدراسات الجغرافية والفلكية والرياضيات، والهر جورج ويلهلم بورينفند Herr Georg Wilhelm Baurenfeind (ألماني) وهو رسام أنيطت به مهمة الرسوم الفنية وحفرها على النحاس، والبروفيسور بيتر فورسكال Peter Forsskal (سويدي) طبيباً للبعثة، ومتخصصاً في علم النبات[1]. ولم يكن لأي من هؤلاء الرئاسة على الآخرين، فكل منهم له مؤهلاته ومكانته، وإذا كان لأحد منهم الفضل فهو لفورسكال وفون هافن لإجادتهما اللغة العربية، وبهذا قضت تعليمات الملك فريدريك الخامس، الذي طلب من كل منهم أن يعاون زملاءه، ولكن على أن يظل له ميدان عمله الخاص الذي سيُقدم عنه تقريراً عند عودته.

تُبحر الباخرة الدنمركية من ميناء كوبنهاجن، لترسو بميناء مرسيليا، ومنه إلى أسطنبول، حيث وصلتها في 30 يوليو 1761، فالإسكندرية في 26 من الشهر نفسه، وتُمضي البعثة حوالي السنة في مصر لدراسة أحوالها وآثارها، وليتعلم أفرادها اللغة العربية أيضاً، ثم بعد ذلك تُبحر من الإسكندرية عبر النيل متجهة إلى السويس، وفي 5 أكتوبر 1762 تتحرك البعثة من السويس إلى جدة، ومنها إلى مخا في اليمن.

تُصاب البعثة بصدمة بموت فون هافن باليمن في مارس 1763، وفي 13

(1) شريف يوسف: (اكتشافات الرواد والرحالين الغربيين في شبه الجزيرة العربية وأثر العرب في علم الجغرافية)، مجلة المورد، المجلد 11، العدد الثاني (صيف 1982)، ص 9.

يوليو يلحق به بيتر فورسكال في مدينة جرم Jerim، ورغم ذلك يزور نيبور مع من بقي من أعضاء البعثة صنعاء، ويقابلون أميرها، ثم يعودون إلى مخا لقضاء الصيف فيها. ومن مخا يُبحرون إلى بومباي في الهند، حيث توفي رسام البعثة بوربنفند، ثم لحق به فون كريمر في 10 فبراير 1764، فبقي نيبور العضو الوحيد، الذي وقع على عاتقه مهام البعثة وواجباتها، إلا أن همته العالية، وثقافته الواسعة، ودأبه المتواصل، وإرادته الحازمة، كل ذلك دفعه إلى إتمام الرحلة، وإنجاز ما يترتب عليها من أعمال واسعة المقاصد متشعبة الأغراض(1).

يُغادر نيبور بمفرده بومباي في 24 مارس متجهاً إلى سورات Surat فيدرس أحوالها وتجارتها، ثم يقفل عائداً إلى بومباي، وكانت لديه الرغبة في زيارة الصين، لكن بينما كان بانتظار السفينة التي ستقله إليها، أصيب بالحمى والمرض مما جعله يُغير خطته في السفر إليها. وبعد أن يمكث نيبور في الهند أربعة عشر شهراً، يُقرر العودة إلى بلاده، فيمر بمسقط، ثم يتوجه عن طريق الخليج العربي إلى جمبرون (بندر عباس) ومنها إلى شيراز، فخرائب برسيبوليس، وبعد أن يقضى بها أربعة وعشرين يوماً توفي فيها خادمه، يُغادرها في 7 أبريل 1765 إلى بوشهر، حيث يُسافر بسفينة هولندية صغيرة إلى جزيرة خارج Kharg فيصلها في31 مايو، على أمل أن تنقله سفينة إنجليزية إلى البصرة، في أوائل شهر يونيو.

تنقطع أخبار نيبور منذ وصوله إلى البصرة، حيث يرتدي الملابس العربية منذ أن وطئت أقدامه أرض العراق أو بلاد ما بين النهرين كما يُطلق عليها في الأدبيات الأجنبية، وينتحل اسم عبدالله، ويُغادر بغداد في 3 مارس

(1) علي عفيفي علي غازي: (رحالة زاروا الإمارات – كارستن نيبور)، مجلة الإمارات الثقافية، العدد 46 (يونيو 2016)، ص 26–29.

1766، فيصـل الموصـل فماردين، ثم إلـى حلب، ويذهب مـع قافلة تجارية إلى إنطاكية ومنها إلى ميناء الإسـكندرونه، وأخير يصـل كوبنهاجن في 20 نوفمبر 1767. ويتزوج في عام 1773 بكريستيان صوفي بلومنبرج Cristiane Sophie Blumenberg، وهـي فتـاة تبلـغ من العمر 33 عامـاً، وكانت ابنة طبيب يعمل في خدمة الملك فردريك، وفي السـنة التالية لزواجه نشر المجلد الأول من مذكراته.

تبتـدئ حياة نيبور بالتدهور والاضـمحلال عند مطالبتـه بوظيفة كتابية في (ملدورف)، التي يُسـافر إليها مع زوجته وطفليه في صيف 1778، وبالرغم من أن نيبور كان ألماني الأصل والثقافة إلا أنه كان يحمل جواز سفر دنمركي، وكان شعوره بدنمركيته قوياً منذ دخوله في خدمة الملك فريدريك الخامس. وفي أواخر أيامه يُعين عضـواً في المجمع العلمي الفرنسـي، ثم يشتري أرضاً لفلاحتهـا، فيعـود فلاحاً كما بـدأ، وتوالت عليه النكبات فيُصـاب بالعمى، وتتوفـى زوجتـه في عام 1807، ثم يُصـاب بكسـر في سـاقه، فيُصـبح هذا الرحالة الجسور والسائح الجريء أعرج، وفي 26 أبريل 1815 تنتهي حياته، في (ملدورف) مـن مقاطعة (ديتماركـن Dithmarchen) عن عمر يناهز 82 عاماً مُكللة بالأعمال العظيمة[1].

الخط العربي

يعتـبر الخط العربي فناً أُبتكر ليكون وسـيلة لتدوين وحفظ القرآن الكريم. وحافظـت الأجيـال المتعاقبـة من الخطاطين علـى مر القـرون على أنماط وأسـاليب الخطوط العربية، من دون أن تسـعى إلى تعديل تلك الأشكال، بل حرصـت على المحافظة على هـذ التراث البديع. ويُعتبر الخـط العربي فناً

(1) كارسـتن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، محمود حسين الأمين (ترجمة)، (بغداد: شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، 1965)، الصفحات 5– 16.

قائماً بذاته منذ عدة قرون، ولا يستطيع الخطاط إتقانه إلا على يد أستاذ خبير في الخط، وهو مُدرك لحقيقة أنه لا يستطيع تطوير هذا الفن، وأن كل ما يستطيع فعله هو محاولة الاقتراب من إتقانه.

بعد لقاء نيبور الأول مع إمام اليمن سمح للبعثة الدنمركية بالتنقل بحرية في مدينة صنعاء وانصرف نيبور إلى إكمال خريطته وسط حشود من الناس تحلقت حوله، وبعد الانتهاء من الخريطة نزل إلى السوق، وراح يُسجل أنواع البضائع الموجودة، وقود، فحم حجري، حديد، عنب، ذرة، زبدة، الملح والخبز، الذي تبيعه النساء كما هي العادة في معظم الجزيرة العربية، وكانت هناك أيضاً سوق أخرى تُستبدل فيها الثياب القديمة بثياب جديدة وتعرض فيها بضائع تركية وفارسية وهندية، كذلك كانت هناك أعشاب وعقاقير وثمار مجففة كالإجاص، والإسكافيون والخياطون، والبناؤون، ومجلدو الكتب والخطاطون[1].

يُشيد نيبور بروعة الفن الإسلامي في جامع الموصل الكبير، في رحلة عودته من الهند عبر الخليج العربي والعراق، فيقول: «تقع في وسط الساحة الفسيحة للجامع (الكبير في الموصل) بناية تُدعى القبلة أو المحراب الكبير، وهو كالمحاريب الأخرى الموجودة في بقية المساجد، ولكنها مبنية في حائط المسجد، وتُشير إلى اتجاه مكة، وأهميتها أنها تُساعد المسلمين في معرفة اتجاه القبلة وقت الصلاة. وهذا المحراب منحوت بكامله من المرمر تتجلى فيه روعة الفن الإسلامي، والنقوش التي تُمثل ورق العنب، وقد جدد بناء قسم من الجامع، وله شبابيك على هيئة شبكة من المرمر، ولم أر في هذه الشبابيك زجاجاً، وسمك هذه الشبكة من المرمر نحو ثلاثة أصابع وقد نحتت

(1) سمير عطا الله: قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية والخليج، (بيروت: دار الساقي، 1994)، ص 38.

نحتاً رديئاً. ولهذا الجامع أعمدة مثمنة الجوانب، نحتت من الحجر».[1]

يذكر نيبور أن مدينتي القاهرة وبغداد تشتهران ببيع الكتب، وأن مدينة بغداد كانت تشتهر في أيام الخلفاء العباسيين بالعلوم والنشاط الثقافي، أما اليوم فقد أهملت هذه الناحية وأصبحت البلاد في جهل مُطبق، وفي حالة أسوأ مما في مصر واليمن. فقد وجدت في بغداد عدداً قليلاً من الناس ممن يعرفون القراءة والكتابة. وإذ هناك في القاهرة مكان يشتري منه المسلمون كتباً قديمة فليس في بغداد محل كهذا أبداً!. فإذا ما أراد أحد أن يقتني كتباً بغير أن يكلف نفسه عناء الاستنساخ أو تكليف أحد به، فإنه ينتظر حتى يموت أحد الجامعين للكتب، وعندها تباع في السوق كما تباع الألبسة القديمة، وينادي عليها الدلالون للمزايدة على أثمانها. والأجنبي الذي يريد شراء مخطوطات عربية أو فارسية أو تركية عليه أن يذهب إلى القسطنطينية فإنها تُعد أحسن مكان لشراء الكتب، وذلك لوجود مكتبات كثيرة فيها حيث يستطيع النصارى، ولاسيما نصارى بلاد الشرق شراءها[2]. ويُقارن ذلك بالحال الذي وصل له تدهور العلوم عند العرب في عهده فيقول: «العلوم اليوم لا ترى من يُقيم لها وزناً فهي بالضد مما كانت عليه في عهود الخلفاء من لقائها كل رعاية وعناية، ثم إن الإعراض عنها في بغداد أكثر منه في القاهرة، واليمن، وأظن أني لقيت ببغداد قليلاً من الناس يعرفون القراءة والكتابة، وفي القاهرة دكان قائم حتى اليوم يشتري منه المسلمون كتباً عتيقة، وليس في بغداد شيء من هذا، فإن أراد إنسان أن يقتني جملة من الكتب أو ينتسخها أو يستنسخها وجب عليه أن يتربص

(1) كارستن نيبور: (رحلة نيبور في العراق في القرن الثامن عشر)، محمود حسين الأمين (ترجمة)، مجلة سومر، المجلد 9، الجزء الأول (1953)، ص 271 ؛ كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 108، 109.

(2) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 45.

موت بعض الناس من ذوي الكتب، فتحمل كتبه في المدينة كما تحمل الألبسة العتيقة، وينادى عليها بمن زاد؟ وكل أوروبي يريد، أن يشتري كتباً خطية عربية كانت أو تركية أو فارسية لا يجد لذلك مجالاً في غير إستانبول، ففيها نوع من دكاكين الكتب، ومنها يشتري الكتب النصارى الغربيون، وفي الأخرى نصارى الشرق»[1].

يلفت فن الخط العربي انتباه رحالتنا فنراه يرصده في المرحلة من رحلته بداية من نزوله بميناء البصرة وانتهاءً بمغادرته الأراضي العربية الإسلامية متجهاً إلى أوروبا، فيرصد كتابات من الخط العربي على الباب الوسطاني ببغداد، فكتب يقول: «نسخت كتابة منقوشة عليه (الباب الوسطاني) بتفصيل، يعلم بها أن الخليفة الناصر لدين الله كان قد أنجز هذا البنيان سنة 618 هجرية، أي سنة 1221م، وذلك مما يدل على قدم بغداد، وهذه الكتابة هي: بسم الله الرحمن الرحيم، (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم). أمر بعمارته سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة (على) كافة الأنام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين، خليفة رب العالمين، وحجة الله عز وجل على الخلق أجمعين، صلوات الله وسلامه على آله الطاهرين، ولا زالت دعوة المدعي على اتباع الحق منازله مناراً، والخلائق لها أتباعاً وأنصاراً، وطاعته المفترضة للمؤمنين أسماعاً وأبصاراً، وافق الفراغ منه سنة ثمان عشرة وستمائة، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين»[2].

---

(1) كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مصطفى جواد (ترجمة)، في كتاب بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر المحدودة، 2007)، ص 34، 35؛ كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مصطفى جواد (ترجمة)، مجلة سومر، المجلد 20 الجزء الأول والثاني (1964)، ص 57.

(2) كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مجلة سومر، ص 50؛ كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، بغداد بأقلام رحالة، ص 13.

يجذب الخط العربي انتباه نيبور على جدران المدرسة المستنصرية ببغداد فيذكر أنه على طول البناية من جهة النهر كتابة طويلة يُفهم منها أن الخليفة المستنصر بناها سنة 630هـ/ 1222م، وإذ كان الناس العابرون للجسر متوافرين لم يكن انتساخي للكتابة متسنياً لي دون اجتذاب انتباه الناس إليّ فلذلك وكلت نسخها إلى ملا من الملائين، وقد قابلت ما نسخه بالأصل، ونقلته: «قد أمر بإنشاء هذه المدرسة الشريفة لطلاب العلم، وتُسمى المدرسة العظمى دولة العز وأسعد الخلائق المحجة البيضاء عبدالله وخليفته في أرضه الخليفة أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين، أمتع الله المسلمين بإعزاز سلطانه وأيد دولته بطول حياته، وذلك سنة ستمائة وثلاثين (كذا). ولاشك في أن مختصر الكتابة جاء مصحفاً محرفاً ومضطرباً».[1]

ينتقل نيبور بعد ذلك لزيارة مسجد المستنصر بالله العباسي، الذي يصفه بأنه جامع عظيم في محلة سوق الغزل، فيلتفت إلى وجود كتابة بالخط العربي منقوشة على بابه، فيقول: «فوق الباب يرى الرائي كتابة هذا نصها: أمر بعمله سيدنا ومولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أعلى الله تعالى معالم الإسلام بهمته العلية، وأزهى وأرسى دعائم الإيمان بإيالته (الرضية) وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة».[2]

(1) كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مجلة سومر، ص 50، 51؛ كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، بغداد بأقلام رحالة، ص 15، 16.

(2) كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مجلة سومر، ص 51؛ كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، بغداد بأقلام رحالة، ص 16، 17.

الخط الكوفي

يرصد نيبور كتابات بالخط الكوفي فوق مدخل تكية لدراويش الطريقة البكتاشية ببغداد، والتي يُعرفها بأنها (عمارة عتيقة شاهقة)، الأمر الذي يدل على اهتمام الرحالة بفن الخط العربي، ومعرفته لأنواعه والاختلافات بينها، ومؤسس هذه التكية هو الخليفة الناصر لدين الله العباسي (575-622هـ) أقامها لزوجته سلجوقي خاتون بنت الملك العادل قلج أرسلان المتوفاة سنة 584هـ أي السنة التي أرخ بها البناء، ويُعرف برباط الأخلاطية أو الخلاطية أو رباط الرملة. ويرصد نيبور فوق مدخل هذه التكية، «كتابة أصابها كثير من البلى والتلف وتخربت كثيراً، ولم يكن لأحد قراءتها في أعالي هذه البناية، كما تدور آيات من القرآن مكتوبة بخط كوفي كبير الحروف على الآجر، وقد أصاب أكثرها تلف بمرور الزمن المبيد، تلف لا يورث العجب، فليس من المعقول أن تبقى سالمة أشياء فخارية بعد ستمائة سنة، إلا أن رغبتي في وقف القارئ على حال هذه الكتابة والزخرفة والتزايين المتداخلة فيها حملتني على نقش أولها الذي هو أقل بلى من غيره. ونصه بحروف العرب المستعملة الآن، لتمثل نموذجاً من الكتابة الكوفية المحفورة على الآجر...، ولكي أقدم للقارئ نموذجاً من هذا الخط، وما يحتويه من الزخارف البارزة والمتداخلة في بعضها البعض، فقد استنسخت مقدمتها فقط، والتي هي أقل تشويهاً من البقية: بسم الله الرحمن الرحيم، والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين على سرر موضونة متكئين عليها (متقابلين)». ويلاحظ نيبور وجود كتابة لإحدى سور القرآن الكريم تحيط بالبناية كلها، وقد كتبت بحروف كبيرة بالخط الكوفي الجميل وبقطع من الطابوق. وقد عفى الزمن على معالم هذه الكتابة وتآكلت أيضاً. ولا عجب في ذلك إذ لا ينتظر أن تبقى

كتابة بحروف من الطين المشوي غير مخربة مدة ستمائة سنة[1]. وفي دلالة على مدى وعيه وإدراكه للخط العربي كفن من الفنون التي أتقنها العرب والمسلمون نراه يعقب قائلاً: «إن العرب في الوقت الحاضر يكتبونها بهذه الطريقة لو طلب إليهم كتابتها».[2]

يقارن نيبور بين الخط الكوفي الذي يراه في بغداد وبين خط كوفي آخر كان قد نقله من بلاد اليمن، فنراه يقول إن هذا النوع من الكتابة له تشابه كبير مع الكتابة التي استنسختها في اليمن والمنشورة في اللوحة التاسعة في القسم الخاص بوصف الجزيرة العربية. يستنتج من هذا أن العرب في أزمانهم الغابرة عندما كان العلم مزدهراً تحت حكمهم تفننوا في كتابة حروف لغتهم الهجائية أيضاً. ولو استمروا على طريقة كتابتهم هذه لوجد العلماء الغربيون صعوبات كثيرة في قراءة الكتب العربية ومخطوطاتها. والكتابة التي وجدت على غطاء وعاء من الفخار عثر عليه في تخت كسرى، والذي نشرت له صورة في كتاب أسفار آيفز Ives Reisen هي من هذا النوع، وقد أكد الذين وجدوا هذا الإناء وقدموه للرحالة صمويل آيفز Samuel Eves أن الكتابة التي عليه هي بالخط الفارسي القديم، أي الخط الفرثي (بارثية).[3]

يواصل نيبور رصده لكتابات الخط العربي في بغداد، فعندما يزور ضريح زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد، التي يقول عنها: «إنها امرأة مشهورة في تاريخ العرب»، وكانت وفاتها سنة 216هـ/ 831م، وفي 1131هـ/ 1718م دفن حسن باشا زوجه عائشة بنت مصطفى باشا إلى جانب زبيدة، ووضع على، قبرها رخامة كبيرة كتب عليها: «إلى روحها الفاتحة، هذا

(1) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 36.

(2) كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مجلة سومر، ص 53؛ كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، بغداد بأقلام رحالة، ص 22.

(3) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 37.

قبر المرحومــة المغفورة الموفقة للخيرات الجارية ســت زبيدة بنت جعفر بن منصــور الدوانيقي، وزوجة هارون الرشــيد من خلفاء بني العباس، وتوفيت ســنة مائتين وســت عشــرة، إلى روحها الفاتحة، هذا قبر المرحومة المغفورة الصــالحة العفيفة الساعية إلى الأفعال المرضية، والأعمال اللاتي تستجلب المرضاة الإلهية عائشة خانم بنت المرحوم مصطفى باشا وصاحب السلطان محمد خان عليه الرحمة والرضوان، وزوجة الدستور المكرم والوزير الأفخم والي بغداد دار الســلام أبو الخيرات حســن باشــا، يســر الله له الخير كما يحب ويرضى ويشاء، وتوفيت في شهر رمضان سبعة وعشرين ليلة القدر في سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف».[1]

ينتقــل نيبور بعد ذلك إلى مدينة الكوفة، ونراه مهتماً كذلك بالخط العربي، فيستنســخ كتابــة بالخط الكوفي الجميل عن شــاهد قبر يعود إلى شــخص مدفــون في مســجد الكوفــة اســمه جعفر بــن معمــر. وتبتــدئ الكتابة على الوجه (أ) بســورة الإخلاص: بســم الله الرحمن الرحيــم قل هو الله أحد، الله الصــمد، لم يلــد ولم يولــد، ولم يكن لــه كفواً أحد. هذا قــبر جعفر بن معمر رحمه الله وغفر له، صــلى الله علــى محمد وعلى آل محمد. (ب) آية الكرسي... (ج) اللهم صل على محمد وآله. (د) والله ولي التوفيق.[2]

يرصــد نيبور بمدينة الموصــل كتابات بالخط الكوفي مزخرفــة على جدران الجامــع الأحمــر[3]، الذي يقول عنــه: «إنه جامع كبير قديم يُســمى الجامع

---

(1) كارســتن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مجلة ســومر، ص 53؛ كارســتن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، بغداد بأقلام رحالة، ص 23، 24.

(2) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 52.

(3) يعــرف هــذا الجامع كذلــك بالجامع المجاهدي أو جامع الربض، أو جامع الخضــر. وقد شــيده مجاهد الديــن قيماز الرومــي أحد مماليك الأتابكيين ســنة 572 هـ/ 1176م. كارســتن نيبور: (رحلة نيبور في العراق في القرن الثامن عشر)، مجلة سومر، ص 271.

الأحمـر، وقد وجدت في داخله تأريخاً وهو سـنة 576 للهجرة، ولم أسـتطع قراءة اسـم بانيه لأن الكتابات كانت غير واضحة، ولقد قيل لي إن بانيه هو مجاهـد الدين، ولعل مجاهد الدين هذا، هو مجاهد الدين قيماز الذي ورد ذكره في تأريخ العالم العام، ولا يسـتبعد أن قام ببنائه بأمر من سيف الدين غـازي بن مودود الذي توفي في هذه السـنة. وفي هـذا الجامع كتابات كثيرة ومن ضـمنها كتابات بالخط الكوفي، وكذلك كتابات بالخط العربي المألوف اليـوم، وجميعها آيات مـن القرآن. وهذه الكتابات والنقوش النباتية والتي تمثل أوراق الكـرم والتزيينات الأخرى التي تغطي جدران الجامع قد عملت من الجص بطريقة جميلة جداً قلما يجد مثلها المرء في هذه البلاد».[1]

يواصل نيبور رصـده للخط العربي في الموصل على قبر يُدعى صاحبه يحيى بن القاسـم، أو كما يطلق عليه البعض (أبو القاسـم). فيقول: «لاحظت أن الجدار المحيط بالقبر من الداخل مكسـو بقطعة عريضة من الرخام مزينة بنقوش من أوراق الكرم في غاية الدقة والإتقان وحفرت عليها كتابات مُلئت بالجبس، ويولي المسلمون اهتماماً كبيراً لأمثال هذه التزيينات والنقوش عن طريـق الكتابات، كذلك وجدت كتابات ونقوشـاً محفورة على الآجر فأثارت فيَّ الدهشـة والاسـتغراب، ذلك لأنها جميلة التزيينات المعمارية المألوفة في بابـل وبغـداد اللتين يندر فيهما وجود الرخام والحجر، ولا يمكن الحصـول عليهما حتى بالمال، ولذا فقد جلبت انتباهي الشـديد صـناعة النقش وحفر الكتابات على الآجر في الموصـل، واعتبرت وجودها أمراً غريباً، خاصـة وأن الرخـام في هذا البلد متوفر جداً، كذلك رأيت هذا النوع من الآجر المنقوش قد استعمل لتزيين مداخل البيوت».[2]

(1) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 109، 110.

(2) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 110، 111؛ كارستن نيبور: (رحلة نيبور في العراق)، مجلة سومر، ص 272.

جان روسو

يولد القنصل الفرنسي جان باتيست لوي جاك بارون روسو Jean Batiste Louis Jacques Baron Rousseau، في أسرة روسو، التي قدمت لفرنسا خدمات جليلة في الشرق، خاصة في مجال العمل الدبلوماسي بصفة قناصل. ويرجع أصل هذه الأسرة إلى أنطوان روسو، وهو صاحب مكتبة في باريس، عاش في مطلع القرن السادس عشر، واعتنق ابنه المذهب البروتستانتي، فاضطر إلى الابتعاد عن فرنسا؛ والتجأ إلى جنيف، وهناك مارس مهنة العائلة، وهي بيع الكتب، إلى أن توفي في سنة 1570، وكان اسم حفيده جاك جد رحالتنا، وعم جان جاك روسو الفيلسوف المشهور. وتعاطى لوي جاك روسو تجارة الجواهر، ثم عاد إلى فرنسا لممارسة مهنة العائلة المتوراثة، وهي بيع الكتب، لكن حب المغامرات والأسفار كان يُداعب فكره، فانضم في عام 1705 إلى سفارة الملك الفرنسي لويس الرابع عشر (1638–1715) إلى الشاة الفارسي حسين الصفوي (1694–1722)، برئاسة السيد فابر. وعاد جاك روسو بعد ذلك ومكث في إيران، وصار مع الأيام شيخ الجوهريين، العاملين في خدمة التاج الفرنسي، وتوفي سنة 1737 عن عمر يناهز الرابعة والسبعين، بعد أن خلف ابناً وحيداً سماه جان.

ينتقل جان روسو بعد رحيل أبيه إلى بندر عباس، حيث ينال قسطاً من الربح من عمليات تجارية، وينجح في استعادة ثروة العائلة، ثم ينتقل إلى البصرة واضعاً نفسه في خدمة دولته، فيُصبح مساعداً للحسابات في شركة الهند الشرقية الفرنسية (1762–1770)، وتُكلفه حكومته بمهمات مختلفة، تجارية وسياسية، فيتمها بنجاح، وفي عام 1772 أُنيطت به مهام القنصلية الفرنسية في بغداد والبصرة، وبعد احتلال الفرس للمدينة الأخيرة في سنة

1776، يُقرر العودة إلى فرنسا؛ ليُطالب برواتبه المتأخرة، وبالتعويض عن الخسائر التي لحقت به، وكان يطيب له أن يسافر مرتدياً الأزياء الشرقية، وكذلك زوجته، فلما وصل إلى بلده صار موضوع حديث الناس، ونال رتبة قنصل فرنسا في البصرة، إضافة إلى مكافأة مجزية، ثم عاد إلى بغداد فوصلها في عام 1782، وبعد سنتين انتقل إلى البصرة، ولما احتلت القوات الفرنسية مصر سنة 1798، حلت على روسو نقمة العثمانيين، إذ نُهبت أمواله، وقيدوه بالأغلال، وساقوه إلى ماردين، ورفض بكبرياء افتداء نفسه، حتى هب لنجدته سليمان باشا الكبير، والي بغداد (1780–1802) فخلصه بعد أن قضى أحد عشر شهراً في القيود.

يعود جان روسو مرة أخرى في سنة 1803، ممثلاً دبلوماسياً ووكيلاً تجارياً في بغداد من قبل الحكومة القنصلية (1799–1804)، وفي السنة التالية يُكلف بأن يُمهد للعلاقات مع إيران، وأن يعيد المعاهدة بين هذا البلد وفرنسا، بينما يتمّ تعيين ابنه قنصلاً في البصرة في 27 فبراير 1805. وفي هذه المدة يكتب جان روسو مؤلفه: (رحلة من حلب إلى الموصل عن طريق الجزيرة)، بدأها في 10 أبريل 1807، وأتمها في شهر مايو من السنة نفسها. ثم يُعين سكرتيراً ثانياً في المفوضية الفرنسية بطهران في 14 مايو 1807، فيكتب: (رحلة في فارس عن طريق بغداد). وفي يناير 1808 يُرسل إلى حكومته مخططاً لمرور الجيش الفرنسي عبر الدولتين العثمانية والفارسية، مع ملاحظات عن الأمكنة والشعوب، وكان التقرير مقدماً إلى السفير الجنرال كاردان، ويحتفظ أرشيف وزارة الشؤون الخارجية بمخطوطة هذا التقرير. ولم يمكث روسو طويلاً في طهران، إذ يبلغه خبر وفاة والده في حلب في 12 مايو 1808، فيُقرر السفر إليها للوقوف إلى جانب أمه، فيبدأ رحلته التي استغرقت الفترة بين 22 أكتوبر إلى 23 ديسمبر 1808، ويكتبها بعنوان

(رحلة إلى الجزيرة العربية). ويطبع كذلك كراساً بعنوان (معلومات عن الوهابيين) جمع معلوماته أثناء هذه الرحلة، ونشر سنة 1808 كتاباً بعنوان (وصف باشوية بغداد)، وفي هذه الرحلة يجمع روسو نحو 500 مخطوط من المخطوطات العربية القديمة بتكليف من السيد (أوفاروف)، لحساب قيصر روسيا، وقد وصفها جان روسو في كتابه (بحث في المذاهب الإسلامية الأكثر شهرة: الوهابية والنصيرية والإسماعيلية)، الذي طبع في باريس ومارسيليا سنة 1818، وهي تلك المخطوطات التي تزين اليوم خزانة الأكاديمية الملكية في سان بطرسبرج.

يُعين جان روسو في السنة نفسها، أي في عام 1808، قنصلاً عاماً في حلب مكان والده الراحل، فيبقى في هذه الوظيفة إلى سنة 1814، إذ يُدعى ليشغل الوظيفة ذاتها في بغداد، وفي هذه المدة نشر كتابه (لمحة عن بلاد فارس القديمة والحديثة، وتتبعها جداول خاصة بجغرافية هذه المملكة وتاريخها)، طبع في مارسيليا سنة 1818، وألحقه بكتاب عنوانه (مقالات متفرقة في التاريخ والأدب الشرقي)، يتضمن مقالة في وصف باشوية حلب. ويُعد جان روسو في وقت لاحق خرائط بلدان آسيا الصغرى، التي يهتم بوصفها في مؤلفاته. وفي سنة 1824، يُعين قنصلاً عاماً، وقائماً بالأعمال لدى البلاط الملكي في طرابلس الغرب، وبعد سنتين يجري بينه وبين الباي، زعيم المغرب العربي، نقاش حاد، فيغضب جان روسو، ويركب سفينة فرنسية كانت راسية في الميناء، وإزاء هذا الموقف المتشدد يضطر الباي للرضوخ. وفي سنة 1927 تنتشر في العاصمة الفرنسية باريس إشاعة عن وفاته، وتسرع الصحف والجرائد بنشر سيرته، ومن بينها (مجلة الجمعية الجغرافية)، وتقوم الحكومة الفرنسية بتعيين السيد ميشال خلفاً له، والذي كان قنصل فرنسا في قبرص، وتُرسل موظفاً حاملاً رسائل رسمية؛ لكي يتسلم القنصلية

الفرنسية في طرابلس مؤقتاً ريثما يصل السيد ميشال، وإذ بالمفاجأة أن جان روسو حي يُرزق، لكن المبعوث العنيد أبى إلا أن يعمل بموجب التعليمات الصادرة له، فوضع يده بالقوة على البناية ونزل فيها، ولم يخرج منها إلا بعد وصول أمر صريح من وزارة الخارجية، التي اهتدت إلى الحقيقة على إثر رسائل عديدة أمطرها بها جان روسو، الذي ينجح في شهر يوليو 1827، في أن يُصدر جريدة بعنوان (الباحث الأفريقي) وينشر فيها عدداً من المقالات بقلمه. ويعيد نشر هذه المقالات في مجلة الجمعية الجغرافية في أكتوبر 1827، حيث كان عضواً مراسلاً لها، إذ نشرت له رسائل مثيرة، حررها من طرابلس أيضاً، تدور حول أفريقيا الوسطى.

يتوفى لوي جاك روسو في سنة 1831، بعد أن يُرقى إلى رتبة بارون، ويُعين عضواً في أكاديمية الرقم والأدبيات Academie des Inscriptions et Belles Lettres، ويترك عدداً من الأولاد، عرف أحدهم المولود في حلب سنة 1811، لأنه خدم في الجيش الفرنسي، وعين بعد ذلك قنصلاً فخرياً في بروسيا، ثم في جدة مع الإقامة في دمشق، مع الأمير عبدالقادر الجزائري (1808–1883).[1]

يكتب جان روسو كتابه (رحلة إلى الجزيرة العربية)، والذي يُعد مذكرات طريق، أي ملاحظات سريعة سجلها خلال أيام سفره، وبالتالي نص رحلته هذا ليس علمياً أو تاريخياً بالمعنى الدقيق، بل هو مذكرات سريعة يُستشف في بعض صفحاتها دوره الاستخباراتي، فهو يُعد مخططاً لمرور الجيش الفرنسي إلى الهند عبر الدولتين العثمانية والفارسية؛ لينافس التغلغل البريطاني في الشرق، ويُقدم بعض تقاريره لجهات عسكرية قبل إرسالها إلى الجهة

(1) لوي جاك روسو: رحلة إلى الجزيرة العربية سنة 1808، بطرس حداد (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2010)، ص 12–17.

المدنية المختصة أي وزارة الشؤون الخارجية. كما اهتم بالقبائل العربية فذكر أسماء أكثر من مائتي قبيلة، وركز على قبيلتي عنزة وعقيل، واهتم كذلك بالخيول العربية، إذ كان معجباً بها، فذكر أسماء أشهر السلالات وأنسابها وأعطى وصفاً مختصراً وجميلاً لها. وترك أسماء جداول وقنوات عديدة مر بها، ووصف بادية الشام وسكانها وعاداتهم. وما يعيبه أن بعض معلوماته استمدها من العوام من أصدقائه من مرافقي الطريق، وبالتالي تفتقر إلى العلمية، إلا أنه بصورة عامة معتدل في كلامه، وفي حكمه؛ فقد أعجب بالقبائل العربية، وأحب مناخ الجزيرة العربية، وقال عنه إنه صحي رغم حرارته العالية في فصل الصيف، لكن له شطحات أحياناً، ورغم ذلك فالرحلة مفيدة وفيها معلومات جيدة. يُوصف أسلوب جان روسو في الكتابة بالركاكة والضعف، ولعل سبب ذلك أنه نشأ وعاش حياته في آسيا الصغرى، حيث تنتشر اللغات المختلفة: العربية والتركية والفارسية، ولعله كان يألف هذه اللغات أكثر من لغته الفرنسية.(1)

الخط العربي

يُميز جان روسو الخط العربي على مئذنة طيبة الإمام بريف حماة، وهي جزء من جامع مقام الإمام علي، والذي بني والمئذنة معاً عام 1002هـ/ 1593م، فيكتب يقول: إن مئذنة طيبة لا تزال قائمة، وهي مربعة الشكل، ينتهي أعلاها بقوس حاد، رأيت في قسمها الأعلى كتابة غير مؤرخة بما معناه: (ليلهم اللّٰه الخيرين والصالحين الحنان والرحمة نحو الفقراء والمساكين).(2)

ينتقل جان روسو إلى قصور الأخوين، فتتأكد معرفته بالخط العربي وقواعده، إذ يكتب يقول: هناك قوس قائم على دعامتين مرتفعتين في وسط

(1) لوي جاك روسو: مرجع سابق، ص 5–7، 9–11.

(2) المرجع السابق، ص 159.

الســاحة، وعلى القوس كتابة بحروف عربية زال بعضها ، استطعت أن أقرأ: (... مسكن السعد لسعيد بن جمال الدين) ، وعلى خطوات قليلة مقابل هذا القوس يوجد ما يشبه القبو يعلوه سقف عريض خسف من الزمن، وفي ظني أنــه كان خزاناً للمــاء. ويلاحظ وجود بقايا شــرفه إلى يســار باب المدخل، لا تزال أقواســها قائمة، وهذه الأقواس تســتند على أعمدة مربعة يشــكلان مــن جهة خطــين متوازيين متقابلين للواجهة الشــرقية، ومن الجهة الأخرى خــط واحد أمــام واجهة الجنوب، وعلى بعد مســافة قليلة يوجد عامود على حدة قريب من العامود الأخير، وفي أعلاه كتابة بالخط الكوفي لم أستطع في أول الأمــر تمييز حروفها لارتفاع موقعها ، ثــم تمكنت بعد ذلك، بعد أن رفع العرب المرافقين لي، الحجر القائم أمام الكتابة، فقرأت ما يلي: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، وحده لا شــريك له، ومحمد رســوله، شيدت هذه المدينة بأمر عبدالله هشام أمير المؤمنين. وهذا بناء أقامه أهل حمص على يد سليمان بن عبيد في السنة العاشرة).

أما القصــر الثاني، فهو أصغر من الأول بقدر النصف، أي نحو مئة خطوة، جدرانه عريضــة، وعالية بما يناسب البناء، إنه مشيد بحيث إن الباب ليس لــه غير بــاب واحد من جهة الغرب، يُقابل باب العمــارة الكبير، توجد كتابة عربيــة باللون الأحمر فوق الباب من الداخل، والكتابة قد طُمســت معالمها، لذلك لم أســتطع قراءتها. هناك مئذنة مبتورة مربعة الشــكل قرب الأبواب بين القصــرين، لا تــزال قاعدتها موجــودة وتحيطها الأنقاضــ. إن الكتابة المنقــورة في الحجــر في داخل القصــر الكبير، التــي نوهت بها كمــا مر بنا تذكر اســم مدينة يظهر أنهــا كانت معتبرة طالما أمــر ببنائها أحد الخلفاء المشهورين، لكني لم أجد أي أثر يدل على وجود قصور الأخوين، مما جعلني أســتنتج بأن هذه الكتابة حملت إلى القصــر من مكان آخر، من الرصــافة مثلاً، تلك المدينة التي شــيدها هشــام ذاك الذي –على ما يذكره المؤرخون

العرب– كان يملك من أصائل الخيل أربعة آلاف رأس لاستعماله الخاص، ولكن ماذا نقول عن هذين القصـرين المنعزلين اللذين لم يذكرهما أي من الجغرافيين، أيكونان حقاً من عمل هذين الأخوين اللذين رويت أسطورتهما نقلاً عن الأعراب، أم هما مخزن عتاد أراده الخلفاء من أجل تسهيل عملية قطع الصحراء؟ الشـيء الأكيد أنهما عمل يرجع إلى العهد الإسلامي، فالمئذنة التي لا تزال منتصبة، ولو مبتورة، هي أكبر دليل على ذلك، وفي نهاية الأمر، فإن بقايا القصرين لا تدل على قدمية موغلة في الزمن، بل في أكثر الاحتمالات أنها تعود إلى صدر الإسلام لا أكثر.[1]

الخط الكوفي

يلحظ جان روسو الخط الكوفي على النقود، فيكتب يقول: «تجولت بين خرائب الكرخ القديمة التي تشاهد بين الكاظم وبغداد، على مسافة قليلة من نهر دجلة، هذه المنطقة كانت ضاحية كبيرة لعاصمة الخلفاء، عامرة بالسكان، ومنهم النصارى، وكان موقعها جميلاً جداً، بحيث إن الشاعر الخاقاني[2] Khakhani، يصفها وصفاً ممتعاً في نص رحلته إلى العراقين التي كتبها شعراً، لكن هذا الموضوع لم يعد اليوم غير أكمات من تراب، يذهب إليه الأعراب فيحفرون عن أشياء مفيدة من أدوات منزلية، وأثاث ومواد أخرى؛ بل يعثرون أحياناً على ميداليات (نقود) مكتوب عليها بالخط الكوفي».[3]

(1) لوي جاك روسو: مرجع سابق، ص 156–158.

(2) أفضل الدين إبراهيم بن علي الشرواني، شاعر فارسي من القرن الثاني عشر الميلادي، يشتهر بصعوبة أشعاره وإخفائه معانيها، وأسلوبه الغامض، له مثنوي طويل أسماه (تحفة العراقين)، وصف فيه حجه إلى مكة المكرمة باللغة الفارسية. ولد في مدينة شروان عام 513هـ/ 1120م، وتركه أبوه في سن مبكرة فاهتم به عمه، وتولى تنشئته وتربيته، وتوفي خاقاني عام 595هـ/ 1199م في سرخاب بالقرب من تبريز، ودفن بمعزة الشعراء. ويكيبيديا الموسوعة الحرة، خاقاني، (تمت الزيارة بتاريخ 6 يونيو 2017).

(3) لوي جاك روسو: مرجع سابق، ص 46.

كلوديوس جيمس ريج

يولد الرحالة الفرنسي كلوديوس جيمس ريج Claudius James Rich (1787 – 1821) في 28 مارس 1787، على مقربة من ديجون من أعمال بورجوندي في فرنسا، ثم ينتقل برفقة أسرته وهو طفل إلى بريستول، في إنجلترا، حيث يقضي السنوات الأولى من حياته برعاية والديه. وتظهر عليه أمارات النبوغ منذ نعومة أظفاره، فأثناء مراحل الدراسة الاعتيادية تلقى مبادئ اللغتين اللاتينية واليونانية، وتعلم لغات عصرية متعددة من دون مُعلم، مُستعيناً بالكتب، ولما بلغ الثامنة أو التاسعة من عمره عثر على مخطوط عربي في خزانة أحد وجهاء بريستول، فساورته رغبة شديدة بالوقوف على هذه اللغة، فكان ذلك الحافز الذي وجه الرغبة الملحة التي كانت تختمر في ذهنه، والتي وطد العزم على تحقيقها، وهي دراسة العلوم الشرقية، التي كان لها الأثر الفعال في توجيه حياته المقبلة، فقد تمكن بواسطة كتاب في النحو، وقاموس وبعض المخطوطات التي استعارها من المستر فوكس في بريستول من إتقان هذه اللغة العسيرة قراءة وكتابة، وأن يتخاطب بها بسهولة وذلاقة كبيرتين، حتى إذا ما بلغ الخامسة عشرة من عمره، قاده هذا التوجيه الفكري الراسخ في ذهنه إلى المثابرة على تحقيقه، بلا ملل، وإلى أن يُحرز تقدماً بارزاً في لغات شرقية عديدة، بينها العبرية والكلدانية والفارسية والتركية.

تثير براعة ريج الفائقة في هذا المسلك الدراسي غير المطروق اهتمام معارفه الأقربين، فقدمه الدكتور مارشان، إلى الدكتور رايلند، أحد أعلام رجال اللاهوت في بريستول، فتمكن من إنماء علاقته بعدد آخر من رجال الأدب، كان أخصهم المستر فوكس، الذي ظل ريج يذكره على الدوام بود

خاص وعرفان بالجميل، إذ بفضل توجيهاته وإشاداته ومكتبته تمكن ريج من إحراز التقدم الذي بلغه في دراساته الشرقية.

يدله الاتجاه الذي انصرفت إليه دراسته، مثلما دل غيره، على أن الهند ستكون خير مرشح لإظهار نبوغه في المستقبل، ففي عام 1803 تمكن أحد أصدقائه المهتمين به من التوسط له لدى شركة الهند الشرقية البريطانية[1] The East India company؛ لتعيينه طالباً حربياً في الخدمة العسكرية، وعندما أعلمه هذا الصديق بتعيينه مبدياً أسفه لأنه لم يتمكن من أن يجد له منصباً خيراً من هذا، أظهر ريج اعتماده على نفسه فاندفع يقول بسرور: «دعني فقط أصل إلى الهند، واترك الباقي إليّ». هكذا أصبح ميدان العمل الواسع الذي كان يجول في مُخيلته في متناول يديه، وراحت تملأ ذهنه الخيالات النيرة، التي تلوح عادة لأنظار آمال الشباب، فأسرع إلى لندن، وراجع دائرة الهند لإتمام الإجراءات الضرورية، التي كان عليه أن يُتمها قبل تسلّمه مهام وظيفته.

يكتب روبرت هول رسالة بتاريخ 30 ديسمبر 1803، من شيفورد بالقرب من كمبردج، إلى صديقه السير جيمس ماكنتوش، يظهر فيها ما كان ريج

---

(1) مجموعة من شركات عدة لممارسة المتاجرة مع الهند والشرق الأقصى، تأسست في أواخر القرن السادس عشر لمزاحمة الشركات الهولندية، وقد وقعت الملكة إليزابيث الأولى وثيقة إنشائها في 31 ديسمبر 1600. وكان عدد المساهمين بها 125، ورأسمالها 172 ألف جنيه استرليني، وعن طريق هذه الشركة استطاعت بريطانيا أن تسيطر على الهند وبُرما والملايو والخليج العربي. أحمد خليل عطوي: دولة الإمارات العربية المتحدة، نشأتها وتطورها (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، 1988)، ص 28؛ علي عبدالله فارس: شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها في تاريخ الخليج العربي 1600–1858، (الشارقة: المسار للدراسات والاستشارات والنشر، 1997)، ص 37–39؛ هنري فوستر: هنري فوستر: نشأة العراق الحديث، سليم طه التكريتي (ترجمة)، (بغداد: الفجر للنشر والتوزيع، 1989)، ج1، ص 56؛ Hoskins. H.L: British routs to India، (London:Longmans Green، 1928)، pp. 5، 6..؛ علي عفيفي علي غازي: الصراع الأجنبي على العراق والجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، (بيروت: دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2015)، ص 11، 12.

يتركه في نفوس المتصلين به في هذه الحقبة المبكرة من حياته. إذ كتب يقول: «اسمحوا لي قبل أن أختم رسالتي أن ألفت اهتمامكم إلى سيد شاب يُدعى ريج، الذي سيُرافقكم في نفس الأسطول الذي سيُقلكم إلى بومباي كطالب حربي. إنه من أهالي بريستول، وقد كان لي السرور بمقابلته مؤخراً، وهو شاب فوق المستوى المعتاد، تمكن بدون مساعدة أو بالقليل منها من تعلم لغات الشرق، فأتقن العبرية والكلدانية والفارسية والعربية، بالإضافة إلى اللاتينية والفرنسية، مع بعض الوقوف على اللغة الصينية، التي بدأ يحل رموزها، وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره. وهو اليوم في السابعة عشرة من العمر، تساوره رغبة ملحة للسفر إلى الهند، ليتاح له الانغمار في ميله الشديد إلى الآداب الشرقية، ولذلك وبعد مشاق عديدة تمكن بالأخير من الحصول على منصب طالب حربي. إنه شاب من عائلة كريمة ذو شخصية وحذق عظيمين، ويدعى كما بينته لكم على ما أظن ريج، وإذا وجدتم من المناسب منحه شرف التعرف إليكم، فإني على ثقة من أنه سوف لا يجعلكم تندمون على عطفكم وتلطفكم». يُسند إليه المستر باري مدير إدارة شركة الهند الشرقية البريطانية، في عام 1803، منصب كاتب التحريرات؛ لمجرد تقرير قدمه إليه المستر ويلكنس عن براعته العجيبة باللغات الشرقية، لا لغرض خاص أو لمجرد معرفة شخصية.

يلفت ريج أنظار السير تشارلز ويلكس Charles Wilkes، المعروف بعلو كعبه في لغات الشرق، وينتبه إلى مقدرته وحذقه في اللغات الشرقية، ولم يلبث أن قدمه لأعضاء مجلس الإدارة كشاب يحمل من النبوغ الفريد النادر ما يجعله يُشرف أية مهمة يضطلع بها تحت رعايتهم. وبناء على هذه التوصيات يعينه إدوارد باري Edward Barry في وظيفة كاتب تحريرات في حكومة بومباي، وهكذا تغيرت وجهته من الخدمة العسكرية إلى الخدمة المدنية،

ولأجـل أن يتمكـن من إتقان اللغتـين العربية والتركية اللتين سـبق أن أحرز فيهما تقدماً ألحق بسـكرتارية المسـتر تشـارلز لوك Charles Lock، الذي كان في طريقه إلى مصـر كقنصـل عام للحكومـة البريطانية، وقد حفظت لـه وظيفته خلافاً لما اعتادته الشـركة خلال اضـطلاعه بهـذه المهمة كمن تسـلمها فعلاً في الهنـد. ويُبحر ريج في مطلع عام 1804، على ظهر سـفينة شـحن تدعى (هندستان) للالتحاق بالمسـتر لوك في البحر المتوسط، ولكن هذه السـفينة تحترق لسـبب ما بخليج روماس في إيطاليا، فيلتجئ ريج إلى شـاطئ قاتالونيا مع الملاحين، وبعـد إقامة طويلـة في إيطاليا يتقن خلالها اللغة الإيطالية، ويدرس الموسيقى، ذلك الفن الذي ظل يولع به طوال حياته، يسـتأنف سـفره إلى مالطة، بمعاونة صديق له من بريسـتول. وقد حدث أن توفي صـديقه المسـتر لوك في الطريق إلى مصر قبل تسـلمه مهام منصبه، وعندئذ سمح مجلس المديرين لريج مسترشداً بآراء المستر ويلكنس القيّمة، بالتوجه من مالطة إلى إسـتانبول ماراً في طريقه بجزائر اليونان. وقد أقام ريج مدة في إسـتانبول، ومنها انتقل إلى أزمير، وهناك انخرط في مدرسـة مع الشـبان الأتراك؛ لإتقان اللغة التركية ودقائقها قـراءة وكتابة، والتعمق في اكتسـاب العلوم الإسلامية، وقام خلال هذه المدة بسفرات مهمة متعددة في آسيا الصـغرى، ثم عين معاوناً للكولونيل إدوارد ميسيت، القنصل العام البريطاني بمصر (1804–1815)، فسافر إلى الإسكندرية بطريق قبرص.

يسـتفيد ريج من إقامته بمصر في إتقان اللغة العربية ولهجاتها المختلفة، وفي الوقت نفسـه كان يقضـي أوقات فراغه بالتمرن على الفروسـية، واسـتعمال السيف والرمح، وعندما توفي المستر لوك، قرر أن يكون سفره إلى الخليج براً، فبارح مصر متنكراً بزي مملوك، وهو مجهز بقلمه وبعين فنان، وبالشخصية والشـجاعة اللتـين يحتاج إليهما المسـافر. فلقد اكتسـب مـن البراعة بلغات

الشرق وعاداته قدراً، بحيث تنكر بزي تركي من كرجستان، فتجول في معظم أنحاء فلسطين وسورية، واعتماداً على براعته بلغة الترك وأطوارهم، وأقام بدمشق عدة أسابيع بين الحجاج عندما كانت قافلة الحج الشامي محتشدة فيها بطريقها إلى مكة، من دون أن يرتاب به أشد المتعصبين المسلمين يقظة وشراسة، فدخل المسجد الحرام، وهذا عمل كان يومئذ يكلفه حياته لو انكشف أمره بأنه مسيحي. ومن حلب قصد البصرة عن طريق ماردين وبغداد، ومنها أبحر إلى بومباي فبلغها في أوائل سبتمبر 1807.

يحتفل ريج بزواجه في 22 يناير 1808، وبعد ذلك بمدة وجيزة يسافر إلى مقر مقيميته التي كانت تضم بغداد والبصرة، فأقام ببغداد حيث مقر الباشا، وحيث يمكنه موقعها المتوسط من إدارة شؤونه السياسية مع الباشوية والحصول على أنباء ما كان يدور في أوروبا في تلك الحقبة المليئة بالحوادث التي كان ينتظر أن يغزو فيها نابليون إنجلترا والهند، وبفضل روحيته العالية، وبعد نظره في الشؤون السياسية، ووقوفه التام على العادات الأهلية، ووافر كرمه، اكتسب بسرعة فائقة الاحترام العميق من الحكومة المحلية والأهلين معاً. ويظل مقيماً بريطانياً في بغداد في الفترة (1808-1821)، حيث يعمل بكل قواه، ويبذل المال بسخاء من أجل هيبة المقيمية، وترسيخ الوجود البريطاني في العراق، تجول في العراق وزار آثارها، اصطدم بالوالي المملوكي داود باشا والي بغداد (1817-1831).[1]

تنشب في عهد مقيميته ثورات حكومية، وتحصل تبديلات بين الباشوات، وقد تمكن المستر ريج بفضل أخلاقه العالية أن يمنح الحماية في بيته لكثير ممن كانت حياتهم في خطر من جراء الانقلابات السياسية في ظروف غير اعتيادية أحياناً، وحتى أنه كان من حين إلى آخر يمنح هذه الحماية لعائلات

(1) لوي جاك روسو: مرجع سابق، ص 31.

الجانب المخذول التي ما كانت لتتخلص لولا هذا الملجأ الذي لم يكن يجرؤ أحد على خرق حرمته، وكان من دواعي ارتياحه أن يرى حوله مفعول عدالته الرسمية، وحسن نيته، وأحياناً لم يكن الناس يقيمون وزناً لوعود باشواتهم وأعيانهم، إلا إذا كانت مدعومة بضمانه. ولقد قضى حوالي ست سنوات ببغداد ولا رفيق أوروبي له سوى زوجه والمستر هاين جراح المقيمية الذي كان معاوناً له أيضاً، فكان يقضي أوقات فراغه من أعماله الرسمية في تتبع دراساته المحببة له، فجمع المصادر اللازمة لكاتب في تاريخ باشوية بغداد وأحوالها الجغرافية والإحصائية، وابتدأ بجمع مجموعته من المخطوطات الشرقية التي لم يدخر من أجل جمعها مجهوداً أو نفقات، وقد نشرت فهارس هذه المجموعة كما كانت عليه في حينه في بضعة أعداد من مجلة (مناجم الشرق) التي كانت تصدر في فينا، وفيها أصدق برهان على مدى النجاح الذي أحرزه في مباحثه.

يهتم ريج بالمقتنيات النادرة واللقى الأثرية، إذ جمع مجموعة غنية بالأنواط والمسكوكات والمجوهرات والأحجار المنقوشة التي عثر عليها في بابل ونينوى، وطيسفون وبغداد، وقام برحلة إلى بابل لدراسة آثار تلك المدينة القديمة، فجمع نتاج ملاحظاته في كتابه (مذكرات في خرائب بابل) الذي طبع لأول مرة في فينا، في مجلة مناجم الشرق، ثم طبعت لاحقاً في إنجلترا، وقد وصفت مجلة (ادن يه ره رفيو) هذه الكتاب بقولها: «إنه رواية متواضعة وصريحة في مشاهداته خلال زيارته القصيرة، ويكفيها اعتباراً ما تمتاز به من خلوها من التحقيقات التي لا طائل تحتها، أو التخمينات الارتجالية، إذ كانت خير برهان على براعة المؤلف في العلوم الشرقية والكلاسيكية، وابتعاده عن الادعاء الفارغ والمباهاة الفظة، وذلك نتيجة طبيعية لعلمه المكين».

يُصـدر الميجور (ره نل) في عام 1816 صحيفته (أركيتولوجيا) فينشر فيها ملاحظاته عن تخطيط بابل القديمة مستندة على مشاهدات واكتشافات ريج، وقد أظهر الشك في بعض آرائه، وعلى هذا قام ريج برحلة أخرى إلى بابل لدرس موقعها، فنشر في لندن عام 1818 كتابه (مذكرات ثانية في بابل) تحتوي على تحقيقات في المقارنة بين الأوصاف القديمة لبابل والآثار، التي لا تزال تشاهد في مواقعها مبنية على ملاحظات الميجور (ره نل)، وقد أيد في مذكراته الثانية هذه، استنتاجاته الأولى، وأضاف فهرساً قيماً في عاديات بابل مزيناً بالصور المحفورة، فقوبلت هذه المذكرات الثانية باهتمام عظيم في جميع أنحاء أوروبا لأنها ألقت ضوءاً جديداً على هذا الموضوع الذي يهم كل قراء التاريخ المقدس أو القديم.

يضطر ريج في أواخر عام 1813، لأسباب صحية، أن يترك مقيمية بغداد في رعاية معاونه المستر هاين، ويُسافر إلى إستانبول برفقة زوجه، فيقضي فيها مدة بضيافة صديقه المستر روبرت والان، سفير بريطانيا لدى الباب العالي، وقد حملته اعتبارات شتى في أوائل عام 1814 على إطالة سفرته ماراً ببلغاريا وبلاد الإفلاق والمجر حتى فينا، ومن ثم وصل إلى باريس، وكانت جيوش الحلفاء قد احتلتها. وكانت تلك الأيام مليئة بالأحداث المثيرة، وباستثناء سفرة قصيرة قام بها إلى بازل، حيث التقى مع صديقه وحميه السير جيمس ماكنتوش، فإنه استقر في باريس، حيث أُتيحت له الفرص لمقابلة الشخصيات المهمة، التي كانت محتشدة فيها في الأيام الخطيرة، إلى أن رجع بونابرت ففرق شملهم، وجعلهم يعودون كل إلى جيشه أو بلاده.

يمر ريج في طريق عودته إلى بغداد بسويسرا وميلان، ومنها إلى البندقية، حيث ودع مكرهاً البلاد الإيطالية الوداع الأخير، فعبر إلى (ترية سته)، ومنها سافر بطريق (كورفو) والأرخبيل إلى إستانبول، وقد مر بطريقه

بعدد من الجزر فنزل إليها لارتياد موقع (طروادة) القديم، ومن إستانبول عاد إلى بغداد، بطريق آسيا الصغرى، ماراً قدر المستطاع بطريق يختلف عن طريق سفره إلى أوروبا، وموجهاً اهتمامه بصورة خاصة إلى جغرافية تلك البلاد لاسيما مواقع سلاسل الجبال، ولما قارب وادي الرافدين زار أديرة السريان والكلدان، وجمع المعلومات عن اليزيدية.

يواصل ريج بعد وصوله مقر مقيميته تتبعاته القديمة، وتمكن خلال السنوات الخمس التي قضاها فيها، من إضافة مخطوطات جديدة إلى مجموعته فأصبحت أوسع وأثمن مجموعة يمتلكها أي شخص في الشرق، وقد ساعدته إقامته ببغداد على هذه المزية الفريدة، وتوسعت كذلك مجموعته من المسكوكات اليونانية والبرثية والساسانية والإسلامية، كما توسعت مجموعته من المجوهرات والأحجار المحفورة لاسيما الأسطوانات البابلية.

يقوم ريج خلال هذه المدة برحلته الثانية إلى بابل. وفي سنة 1820 تسوء حالته الصحية فيقوم برحلة إلى كردستان لغرض تغيير الهواء، وهي الرحلة التي تضمنت يومياتها كتابه (رحلة ريج إلى بغداد وكردستان وإيران). وخلال عودته قام بزيارات متعددة للكنائس المسيحية في مواطن الكلدان، لاسيما تلك التي لم تُتح له مشاهدتها في سفراته السابقة، فتمكن من أن يجمع ويضيف إلى مكتبته عدداً من النصوص السريانية والكلدانية القديمة القيّمة للكتاب المقدس، ومخطوطات نادرة أخرى. وكان قد وطد العزم على السفر إلى بومباي، حيث عينه حاكمها اللورد منتيورات إلفنستون[1] Mountstuart

(1) منتيورات إلفنستون (1779–1859) إسكتلندي، ولد في دومبارتون في 6 أكتوبر 1779، وتلقى تعليمه في المدرسة الملكية بأدنبرة، ثم التحق بالخدمة المدنية بشركة الهند الشرقية البريطانية، حيث كان أحد أعمامه مديراً لها، ووصل كلكتا في عام 1796، حيث شغل العديد من الوظائف، وفي عام 1801 انتقل للعمل الدبلوماسي، حيث عين مساعداً للمقيم البريطاني في بيشاو Peshwa. وفي عام 1804 أصبح المقيم البريطاني في ناجبور Nagpur. وفي عام 1819 تم تعيينه في منصب حاكم بومباي حتى

Elphinstone في منصب خطير، لكن حدث أن هُوجمت دار المقيمية هجوماً عنيفاً بأمر من داود باشا والي بغداد (1816–1831)، أو بتحريضه، وقد نجح المستر ريج في صد هذا الهجوم بقوة السلاح، وتوجه إلى البصرة فبقي فيها حتى دفعت التعويضات المطلوبة[1]. وفي أثناء انتظاره تعليمات حكومته استغل الوقت فقام بسياحة إلى شيراز، ومنها توجه إلى زيارة خرائب برسبوليس وضريح قورش، وبقايا العاديات الأخرى الموجودة في تلك الضواحي.

يُصيب مرض الكوليرا مدينة شيراز، في أثناء إقامة ريج فيها، وخلال بضعة أيام مات ستة آلاف شخص من سكان البلدة البالغ عددهم نحو الأربعين ألفاً، وعلى إثر ذلك هجر البلدة أميرها مع أفراد عائلته وكبار أعيانها ووجهائها ومن استطاع ذلك من أبناء الطبقة الفقيرة. أما ريج فقد أبى أن يُبارح المدينة، وبذل جُهده لتسكين روع الأهلين بزيارتهم، وإسعاف المرضى والمحتضرين، وقد أسعدت قلبه مشاعر الاعتراف بالجميل والشكر التي أظهرها له الناس الذين انبرى لإسعافهم بالأدوية الضرورية. لكن هذه الآفة كانت قد أنشبت أظفارها فيه أيضاً، وظهرت عليه أعراض المرض في 4 أكتوبر، وعلى الرغم من العناية والإسعافات التي أجريت له قضى نحبه في صبيحة اليوم التالي، ودفن في (جهان نامة)، في إحدى الحدائق الملكية التي كان يُقيم بها، ونُصب له تمثال تخليداً لذكراه.

وهكذا رحل هذا الرجل الفذ، ذو النبوغ والمزايا والتحصيل، والأخلاق والمزايا، والمؤهلات الواسعة الفريدة، فقد كانت السرعة التي تعلّم بها اللغات والفنون ترجع إلى غريزة كامنة فيه أكثر من المجهود الذي بذله،

عام 1827، ثم عاد إلى لندن بعد عامين من الترحال في عام 1829، وانتخب زميلاً للجمعية الملكية في أدنبرة في العام التالي. وتوفي في هوكوود Hookwood في 20 نوفمبر 1859. الموسوعة الحرة ويكيبيديا، Mountstuart Elphinstone، (تمت الزيارة بتاريخ 21 يونيو 2017).

(1) علي عفيفي علي غازي: الصراع الأجنبي، ص 27–30.

ففــي الحقبة الأخيرة من حياته باشــر مســح البلاد العربيــة التابعة للدولة العثمانية بنفس الســهولة التي حصــل بها على معلوماته الرياضــية العالية التــي كانت تفتقر إليهــا مهمته. وكان العرب والأتراك معاً يقدرون فيه علمه الواسع في آدابهم، أما بين جماعة أصحابه فكان دائماً قطب الدائرة المحبب، إذ كان على اســتعداد للانخراط في كل ملاهيهم بــدون كلفة، تعجبه الروح المرحة والفكاهة، وكان ملتهب العاطفة نشطها، بين الأصحاب الخليل الوفي الصميم، كان شديد الحب لزوجته، وكان الشعور الديني فيه عميقاً، وكانت شخصــيته القوية تُمكنه من قيادة مرؤوســيه والسيطرة عليهم، وقلما بلغت الأخلاق البريطانية الشهرة التي بلغتها في بلاد الرافدين في الأيام التي تقلّد فيها منصــبه كمقيم بريطاني في بغداد. ولقد كانت مذكراته عن بابل الأثر الوحيــد الذي نشــره في حياته، وبعض المقالات في مجلة (مناجم الشــرق)، وقد ترك مخطوطات عديدة، لاســيما يومياته المسهبة عن طريق سفره من بغداد إلى إســتانبول، التي رافقته بها زوجته الســيدة ريج، على ظهر جواد. كذلك ترك يومياته عن سفره من إستانبول إلى فينا، ومن باريس عائداً إلى بغداد، ويومياته في كردســتان، وأوراقاً أخرى عديدة في موضوعات متفرقة. أما مجموعته القيمة من المخطوطات الشــرقية والمسكوكات والعاديات، فقد اشتراها البرلمان البريطاني لمنفعة المتحف البريطاني حيث هي الآن.

تُلقــي يوميات ريج ضــوءاً جديداً ســاطعاً على جغرافية كردســتان وعادات أهلهــا، وإن النقــاط الجغرافية التي تم التحقيق فيها لما تســاعد على تعيين المواقــع ليس في مختلــف نواحــي كردســتان فحســب، وإنمــا في الأصــقاع المجاورة. ومما لا شــك فيه أن ريج كان يرغب في نشــر مباحثه وملاحظاته عن ســفرته هذه، فقد استعان بكافة وسائل المســح الفني، وعين في يومياته بكل دقة النقاط التي كانت توجه ســيره، ولو كان الأجل يمتد به لنشــر هذه

الأوراق على الجمهور بنفسه، فلربما كان يُضفي عليها الشيء الكثير من ألوان مخيلته، ويُضيف إليها الكثير من المعلومات التي كانت تزدحم في عقله ورهن إشارته، والتي لم يذكرها في يومياته في حينها. وفي الوقت نفسه فإنه بفضل جمعه بين دقة التخطيط وبراعة القلم، بالإضافة إلى المسح الفني، فقد أنجز في بعض أقسام كردستان التي كانت مجهولة في الخرائط الأوروبية حتى ذلك الحين.

يذكر جيمس بيلي فريزر، في رسالة بعث بها إلى ويليم أرسكن، في بومباي، مؤرخة شيراز 6 أكتوبر 1821، أي بعد وفاة ريج بيوم واحد، العبارات التالية: «عثرت بين الكتب التي وجدتها لديه على دفاتر تعليقات ومذكرات لا أشك في أنها ذات قيمة كبيرة، فهي تحتوي على ملاحظات جغرافية وفلكية، ونحن بأمس الحاجة إليها في خرائطنا الإيرانية، وجميع هذه التعليقات والملاحظات عن كردستان، إما أن تكون موجودة بين هذه الأوراق، أو أنها بين الأوراق التي خلفها في بوشهر، وإنها ستكون خسارة لا تعوض للجمهور، فيما لو فقدت، ولقد حرصنا على ألا تفلت منا، أو تضيع علينا أية قصاصة من الورق، فقد تحتوي هذه الوريقات على مذكرات لها قيمتها، وقد سمعت المستر ريج يقول مرة، إن كافة الخرائط الموجودة حالياً عن هذا الجزء من آسيا مشحونة بالأغلاط، وعبر عن رغبته في أن يتم مشروع خرائطه الخاصة، التي كان يُريد أن يضعها بنفسه، ونجد كذلك نسخة جد قيمة من الكتابات المسمارية الموجودة في برسبوليس، كلها مكتوبة بخط يده، وقد كان عازماً على إرسال نسخة منها إلى الأستاذ غروتيفند في ألمانيا».[1]

يذكر ريج أن سبب رحلته هو تعريف الأوروبيين بمنطقة كردستان، فيقول:

---

(1) كلوديوس جيمس ريج: رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام 1820 إلى بغداد وكردستان وإيران، اللواء بهاء الدين نوري (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2008)، ص 5–19.

«ولما كانت كردستان بلاداً غير معروفة في أوروبا إلا قليلاً، وكان لي هناك الكثيرون من المعارف من مواطنيها، الذين وصلتني منهم الكثير من الدعوات الملحة لزيارتهم، فقد سرني أن تتاح لي فرصة أخرى لإرواء غليلي الذي لا تنطفئ ناره، لمشاهدتي بلاداً جديدة».[1]

يهتم ريج بالإشارة إلى وجود عدد من المطابع في مدينتي إستانبول وتبريز، فكتب يقول: «إن المطابع في إستانبول، لم تقم حتى الآن بواجب تثقيف الشعب، إلا أنها طبعت بعض الكتب الجيدة، وقلما يطلبها أحد، بل لا يطالعها حتى الذي يحصل عليها، والآثار الوحيدة التي طبعت ونشرت وتهافت الناس عليها هي القواميس، وعباس ميرزا، معني الآن بتأسيس مطبعة في تبريز، ترى هل ستفيد هذه المطبعة الإيرانيين أكثر مما أفادت الأتراك مطابع اسطنبول، والأمة لا تتقدم بالقوة والإكراه أو بمجهود فردي، مهما كان تقدمياً أو قوياً».[2]

الخط العربي

يلحظ ريج أن قصر والي سنة بمنطقة كردستان العراق مُزين بنقوش وخطوط عربية، فكتب يقول: «وكان الصيوان، أي القصر، شامخاً، وقد زين بالنقوش المذهبة على الطراز الإيراني. والصيوان كغيره من الأبنية المشيدة على طرازه تقليداً لنمط جوسق (جارباغ) في أصفهان، وغيره من الأماكن المماثلة له التي ترجع إلى عهد الدولة الصفوية[3]. هناك صيوان Pavilion جديد مشيد في مؤخرة الشرفة عند المدخل سمي بالخسروية على اسم أكبر أولاد الخان من الأحياء، واسمه خسرو خان، لكن اسمه أبدل مؤخراً بمحمد

(1) كلوديوس جيمس ريج: مرجع سابق، ص 23، 24.
(2) المرجع السابق، ص 293.
(3) نفسه، ص 196، 197.

علـي تيمناً، وكان بالقرب من الغرفة المعدة لي بهو الاستقبال القديم الذي شيده خسرو خان، والد أمان الله خان، بعد ولادة ابنه الوالي الحالي، وذلك قبل سبعة وأربعين عاماً، فالنقوش والزخارف المذهبة التي كانت يوماً ما جميلة، أصبحت لا يمكن ترميمها الآن، لقد أكسيت جدران البهو بالخشب على ارتفاع أربعة أقدام تقريباً، ورسمت عليه الأزهار، ورسمت على الأقسام العليا من الجدران رسوم مختلفة تمثل معركة جالديران، والمعركة التي دارت بين تيمورلنك وبايزيد، ورسوم بعض ملوك إيران الصفويين، ورسم الشاه الحالي بلحيته الخارقة[1]، ورسم الإسكندر الأكبر، وإلى جانبه ساعة، وهو يرتدي البزة الإيرانية، وبوجه امرأة خليعة، هذا، ومن الغريب جداً أن نرى الإيرانيين يؤثرون عن الإسكندر كونه شاباً، أمرد وسيم الطلعة. وكانت واجهة البهو مكشوفة تدعمها الأعمدة وفي منتهاه مقصورة يُطلق الإيرانيون عليها اسم (شاه نشين)، وهي على جانب عظيم من الزخرف، وفي وسطها حوض ماء صغير وتفصلها عن البهو نوافذ زجاجية تسدل عند الاقتضاء، ويُسمى هذا النوع من البهو بـ(التالار إيوان)، وهذه كلها تقليداً لأبنية الصفويين في أصفهان، إن سعة الإيوان عدا المقصورة خمسون قدماً طولاً وخمسة وعشرون قدماً عرضاً. وإذا ما انعطفنا نحو زاوية ذلك

(1) فتح علي شاه، الشاه الثاني من العائلة القاجارية، خلف عمه أغا محمد خان على إثر وفاته، وقد اعتلى العرش بعد اضطرابات داخلية عمت الجيش، وكان إذ ذلك حاكم إيالة فارس، وهو ولي العهد، فتقدم من شيراز إلى العاصمة، وسيطر على الموقف بمساندة رئيس الوزراء الحاج إبراهيم له، وكان هذا عام 1212هـ/ 1789م، ولم يتوج إلا بعد مضي سنة على ذلك، وبقي في دست الحكم 37 عاماً وتوفي عام 1250هـ/ 1826م، ومن الوقائع التي حدثت في عهده تجريده القوات لإخضاع خرسان، وحربه مع الأفغان، ثم مع الروس، وقد أسفر ذلك عن ضياعه بلاد الكرج، وقد امتاز بكفاءة في درء أطماع نابليون في إيران، الأمر الذي حمل الإنجليز على التحالف معه فور اعتلائه العرش، وكان ذلك من الأسباب التي حولت وجهة الأفغان من تحرشهم بالهند وازدهار التجارة بين الهند وإيران، وكانت زيارة السير جون مالكولم لإيران كوزير مفوض فوق العادة لدى البلاط الإيراني في عهده. سلطان بن محمد القاسمي: جون مالكولم والقاعدة التجارية البريطانية في الخليج 1800، (الشارقة: الخليج للصحافة والطباعة والنشر، 1994).

الإيــوان المزدان بالأنجــم والأوراد نجد بهو الاســتقبال الجديــد الذي بناه أمــان الله خان قبل نحو أربع ســنوات. وهذه الغرفة أكبر من الإيوان، تســد واجهتها نوافذ ذات رســوم بديعة، وهي غرفة فخمة جداً، والإزارة منها من المرمر الشفاف قليلاً أو من الرخام المعرق، وقد لونت الإزارة تلويناً جميلاً، وموهــت بالذهب بذوق ســليم وألوان متناســقة، وكانت درجات الســلم من الرخــام المعرق ذاته، وقد جيء به من تل على طريق همدان، وقد اســتخرج من الأرض بعناء شــديد، ولكن مما ألحق الضــرر البالــغ بجمال الردهة ما رســم على الأقســام العليا من جدارها من الرسوم البخســة، وهي أشبه ما تكون برســوم اللافتات، وهي تمثل الملك سليمان، وملكة سبأ، ومعركة دلهي ونادر شاه يُعيد التاج إلى المغول، ورسوم أخرى تمثل حوادث مماثلة، والأنكى من كل ذلك وجود صــور منتصــبة زعموا أنها تمثل إمبراطور روسيا، وأمير الغــال، وحاكم الهند العام، وملك الأســبان، وإمبراطــور ألمانيا، وبونابرت، وهــو يحمل بيــده بندقية وحربة، لقد كانت كلها رســوم ســمجة لا تمت إلى هؤلاء بشبه لا في السيماء ولا في القيافة، إلا رسم إمبراطور روسيا الذي إذا نظرت إليه عرفته لأول وهلة، وقد رسموا أيضاً جلالة الشاه الإيراني بلحيته المرعبــة، وهو مثقــل بالمجوهــرات، وعلى جانبي البهو شــرفتان صــغيرتان مرتفعتــان زينتــا تزيينــاً بديعــاً، تعــرف عندهــم بالإخانــة، وأرى أن كلمة (بلكــون) الإنكليزية محرفة عنها، وكلها مجموعة مــن ماء الألوان الزاهية المذهبــة، وفي الواقع كانت الإزارة برخامها المعــرق فخمة وجميلة معاً، هذا ولو اســتعيض عن هذه الرسوم السمجة المرسومة على الجدران برسوم من ريشة روبين بألوانها الفنية، التي تتلاءم مع باقي أقسام القاعة، أو إذا تعذر ذلك، وهو الواقع، واستعيض عنها بقطع من سجاد غوبلين، لأصبحت غرفة تســتحق عناء السفر لمشــاهدتها، في أي ناحية من أوروبا. وهنالك على بعد

قليل من هذه القاعة توجد غرفة صـغيرة مكسـوة جدرانها بالمرايا ومزوقة تزويقاً غريباً بالأباريق والأكواب والقناني وكؤوس الزجاج وغير ذلك».[1]

الخط الكوفي

يعـثر ريـج في قرية كفري بمنطقة كردسـتان العـراق على مسـكوكة أثرية، تحمـل كتابـات كوفية، فيكتب يقـول: «كنت قد أوعزت بجلـب أية قطعة من المسـكوكات أو العاديات الأخرى التي يُعثر عليها عند القرويين، وقد جاءني (روبـين) في هـذا اليوم بثلاث قطع من المسـكوكات، وبقطعة حجر منحوت حصـل عليهـا من أصـدقائه اليهود، إلا أنهـا كانت بعيـدة كل البعد عن أن تُلقي ضـوءاً على تاريخ الخرائب المجاورة، وكأنها صـنعت خصيصاً لتحير للإنسـان، وتزيد غموضه في الأمر، وكانت إحدى المسـكوكات أرساسية Arsacian، والثانية ساسـانية، والثالثة كوفية».[2] ويـدل ذلك على معرفة ريج العميقة بأنواع الخطوط العربية، ومقدرة فائقة على التمييز بينها، وخاصـة على المسـكوكات والعاديات، التي تحمل كتابات دقيقة وصـغيرة نسـبياً. ما يؤكد على مواهبه الشخصية الفذة.

(1) كلوديوس جيمس ريج: مرجع سابق، ص 200–203.

(2) المرجع السابق، ص 40، 41.

جمس بكنجهام

يولد الرحالة الإنجليزي جمس سلك بكنجهام J. S. Buckingham (1786 –1855) عام 1786 في قرية بالقرب من مدينة فالموث بإنجلترا لأب مزارع، ويُغرم بالبحر، منذ صباه، وينتقل وهو شاب إلى الهند، حيث يعمل في إحدى دوائر شركة الهند الشرقية الإنجليزية، ثم يُصدر (صحيفة كلكتا Culcutta Journal)، التي نجحت نجاحاً كبيراً لما كان يكتبه فيها من نقد لأعمال شركة الهند الشرقية الإنجليزية[1]، وما يعالجه من شؤون الهند ببعض من العدل والإنصاف. ولكن انتقاداته أثارت غضب السلطات البريطانية في الهند، وضاق به ذرعاً (جون آدم)، نائب ملك بريطانيا في الهند عام 1823؛ فعطل صحيفته، وأمر بإخراجه من الهند. ليعود بكنجهام إلى بريطانيا؛ ليُقيم دعوى قضائية ضد شركة الهند الشرقية أمام البرلمان البريطاني مطالباً إياها بالتعويض، ويُصدر البرلمان حكماً لصالحه إذ يُلزم الشركة بأن تدفع له تعويضاً مالياً بمبلغ مائة باون في السنة.

يغتنم بكنجهام، أثناء عمله في شركة الهند الشرقية، ما يتجمع لديه من إجازات سنوية ليُنفقها في رحلة من رحلاته المحفوفة بالمخاطر والأهوال. إذ كان كثير التطواف والترحال، وكانت البلاد العربية قبلة أنظاره في رحلاته وأسفاره. وبدأ أولى رحلاته العربية بمصر عام 1812 فطاف بها من بورسعيد حتى جنوبي أسوان مستوضحاً عن أماكنها الأثرية خاصة، ومدوناً أحوال السكان أثناء اتصاله بهم في تطوافه، وفي حله وترحاله عامة، وطبع تلك الرحلة في جزئين كبيرين. وفي عام 1814 يقوم برحلة أخرى إلى فلسطين، وشرقي الأردن، وأخرج مشاهداته وملاحظاته في كتابين أيضاً.

(1) سهيل قاشا: الموصل في مذكرات الرحالة الأجانب خلال الحكم العثماني، (بغداد: دار الوراق للنشر، 2009)، ص 27.

وفي سنة 1816 بدأ رحلته إلى العراق عن طريق سورية بدأها من مدينة حلب في 27 مايو 1816، وبعد أن عبر نهر الفرات اتجه نحو أورفة داخل الحدود التركية حالياً، ثم سار منها إلى ماردين فديار بكر، ومنها كر راجعاً إلى ماردين فمدينة نصيبين، ومن هناك عبر الحدود العراقية متخذاً طريقه عبر سهل سنجار إلى الموصل، ثم دخل بغداد عن طريق الموصل، أربيل، كركوك. وبعد زيارات خاطفة لعكركوف وآثار بابل استقر بضعة أيام في بغداد ليُغادرها إلى الهند عن طريق إيران. وقد أصدر مجلدين عن رحلته إلى العراق، بعنوان (رحلات في بلاد ما بين النهرين Travels in Mesopotania) (لندن: 1827)، الجزء الأول عن ديار بكر وماردين، والثاني عن الموصل وكركوك وبغداد وبابل. كما صدرت رحلته عن إيران في للدين أيضاً، بعنوان (رحلات في أشور وميديا وإيران Travels in As-syria، Media and Persia) (لندن: 1830)، يصف فيها سفره من بغداد إلى إيران بطريق خانقين وقصر شيرين إلى أن وصل إلى أنقاض مدينة برسبوليس الإيرانية القديمة، ومن هناك غادر إيران إلى الهند ثم عاد من الهند بحراً ليستقر في مدينة البصرة وبوصفها اختتم رحلته الثانية هذه[1]. وضمّ كتابه عن إيران فصولاً خاصة عن البصرة والخليج العربي. وأصدر بعد ذلك كتاباً جديداً باسم (رحلات بين العشائر العربية)، تحدث فيه عن تطوافه بين العشائر العربية على امتداد فلسطين والأردن وسوريا والعراق. وفي ديسمبر 1816 يزور مسقط في طريق عودته من الهند.[2]

---

(1) ستيفن همسلي لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، جعفر الخياط (ترجمة)، (بغداد: مكتبة اليقظة العربية، 1985)، ص 403؛ جيمس بيلي فريزر: رحلة فريزر إلى بغداد سنة 1834، جعفر الخياط (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006)، ص 81.

(2) هلال الحجري: (مدخل إلى أدب الرحلات في عمان، دراسة وصفية للرحالة البريطانيين 1626–1970)، مجلة نزوى، العدد 35، (يوليو 2003).

يستقر المقام ببكنجهام في إنجلترا ويصدر جريدة (صوت الشرق Oriental Herald) في عـام 1824، ثم صـحيفة (Athenacum) عام 1828 لكنه لم يلـق نجاحاً يُذكر. وانغمس انغماسـاً واسـعاً في حملة الإصـلاح الاجتماعي في بريطانيا فاشـترك في عدة جمعيات ونواد لهـذا الغرض، وكان من أقوى الأصوات المطالبة بالإصلاح في البرلمان الإنجليزي عندما اختير عضواً فيه عـن دائرة شـفيلد (1832–1837). وعكف في سـنوات حياته الأخيرة على كتابة سـيرته الشخصية، وكان مقرراً أن تقع هذه السيرة في أربعة مجلدات لكنه لم يُكمل منها سوى مجلدين قبل وفاته سنة 1855.

الخط المسماري

يذكر بكنجهام الخط والكتابات في رحلته أولاً بالإشـارة إلى أنه رأى كتابات بالخط المسـماري في (تل المجبلي) الذي يصـفه بأنه (ركام خرائب تكونت مـن تقوض الأبنيـة) يُرجح أنها ترجع إلى الفـترة البابلية في العراق، حيث عـثر (فيه على قطع مـن اللبن الصـلب عليها كتابات بالخط المسـماري أو البابلي).[(1)]

الخط العربي

يشـاهد بكنجهـام على برجي سـور بغـداد الباقيين كتابة مسـتطيلة طويلة في أعالي هذين البرجين نقشـت على نسـق الخط العربـي القديم، و(تحتل شـريطاً عريضـاً في الجزء الشـمالي من هذين البرجين قد خطت بأحسن خـط عربي قـديم، ويظهر من صـفة تلـك الكتابـة أنهـا ذات الكتابة التي استنسـخها (نيبور) من أحـد الأبراج، ويظهر من هـذه الكتابة أن الخليفة

(1) جمسـ بكنغهام: رحلتي إلى العراق سـنة 1816، سـليم طه التكريتي (ترجمة)، الجـزء الأول (بغداد: مطبعة أسعد، 1968)، ص 256.

الناصر هو الذي شيدها في سنة 618 للهجرة أو سنة 1221 للميلاد)[1].

يذهب بكنجهام إلى أنه شاهد على عتبات حوانيت بغداد (خاصية لم ير مثلها في أي مكان آخر)، فيذكر أنه لاحظ في سوق بغداد وجود شريط من كتابات عربية قديمة تعلو عتبة كل حانوت، وقد حفرت بحروف كبيرة، واعتني بها مثل أي من الكتابات الموجودة في المسجد. ولقد نقشت هذه الكتابات بنسق وانتظام إلى درجة تحمل المرء على الاعتقاد بأنها كانت معاصرة للسوق نفسه، وهو قديم جداً، ولكنه يتساءل (هل أن هذه الكتابات تحمل أسماء الذين اشتغلوا بتلك الحوانيت عند افتتاحها، وهل أنها تضم بعض العبارات المقدسة أو تشير إلى تأريخ تأسيسها؟) إلا أنه لم يستطع الإجابة معللاً ذلك بأن «نظراتنا الخاطفة إليها لم تدعنا نتأكد من ذلك».[2]

يلاحظ بكنجهام كتابات الخط العربي على جوامع بغداد، فيذكر أن مئذنة جامع سوق الغزل تختلف عن مآذن سورية ومصر، «والسطح الخارجي لهذه المئذنة يحمل دلائل التصدع، لكن الجزء الباقي منه يشير إلى أن بعض أجزائه الأخرى، كانت مزينة بالنقوش العربية المدهشة، وأن إحدى الكتابات التي نقلها نيبور بمساعدة أحد الملالي العرب تُبيِّن أن المسجد قد شُيد من قبل الخليفة المستنصر سنة 633 للهجرة الموافق لسنة 1235 الميلادية». أما جامع مرجان، الذي لا يبعد كثيراً عن جامع سوق الغزل، نراه يصفه بأنه «مسجد...، فيه آثار مساوية في القدم لآثار جامع الغزل وواجهته غنية بالنقوش العربية...، وباب مدخله جميل جداً مؤلف من قوس عال ينتهي كل

(1) جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق، ج1، ص 192؛ وراجع الكتابات التي استنسخها نيبور في علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي في كتابات الرحالة كارستن نيبور)، مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني، (2016)، ص 48–55؛ بكنكهام: (رحلة بكنكهام، وصف بغداد)، محمد علي حلاوي (ترجمة)، في كتاب بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر، 2007)، ص 104.

(2) جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق، ج1، ص 195.

جانب منه بسلسلة من أشرطة فخمة منحوتة نحتاً رائعاً...، وفي أعقاب آخر هذه الأشرطة قائمة كبيرة ذات قطر كاف يُمكن اعتبارها عموداً...، وهذه القائمة مخططة بصفة لولبية على امتداد ارتفاعها، وتبدو على الأجزاء البارزة من هذه التخطيطات كتابات ونقوش دقيقة بُذل جهد كبير فيها كُتبت بنسق العصر الذي وجدت فيه. وهناك فيض من الكتابات التي يستطيع أي أمرئ نقلها إذا تهيأ له الوقت اللازم لهذا العمل، الذي يتطلب عدة أسابيع على الأقل»[1]. أما جامع الرصافة الذي شيده الخليفة أبو جعفر المنصور سنة 143هـ/ 760م، ويعتبر أقدم جامع في جانب الرصافة من بغداد...، وكان يُعرف باسم جامع القصر، ثم أطلق عليه جامع الخليفة فجامع الخلفاء، أما مئذنته الشهيرة التي لا تزال قائمة فقد شيدت سنة 678هـ/ 1279م[2].

يواصل بكنجهام حديثه في موضع آخر عن كتابات عربية بالخط العربي بحروف مستقيمة، وحروف فارسية متعرجة، بجامع الخاصكي ببغداد، فيقول: «إن البناء الظاهر داخل المسجد يبدو أنه من تاريخ متأخر كثيراً عن أصل البناء، فهو لم يكن بسيطاً فحسب بل وضعيفاً، ولو أنه يضمّ بعض الكتابات العربية بحروف حسنة بارزة إحداها بالخط الفارسي المتقطع المائل».[3] أما جامع الميدان ببغداد الذي أضيفت إليه في الآونة الأخيرة زخارف كثيرة، والذي يحتفظ بقبة ومنارة جميلتين زخرفتا بالقاشي الملون والكتابات.[4]

(1) جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق، ج1، ص 194. ويشير المترجم إلى أن كتابات هذا الجامع قد اقتلعت في السنوات الأخيرة حينما هدم في سبيل أن يستقيم شارع الرشيد، فلم يبق في البناء الأصلي سوى المدخل الذي يصفه الكاتب، أما الكتابات المقتلعة فقد نقلت إلى دار الآثار ببغداد. بكنكهام: وصف بغداد، ص 107.

(2) جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق، ج1، ص 214.

(3) جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق، ج1، ص 196؛ بكنكهام: وصف بغداد، ص 109.

(4) جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق سنة 1816، سليم طه التكريتي (ترجمة)، الجزء الثاني، (بغداد:

يلتفت بكنجهام كذلك إلى الخط العربي المكتوب على قباب بغداد، فيُشير إلى أن «قباب بغداد ذات مسحة فارسية، والفرق بينها وبين قباب تركيا وسورية من حيث الهيئة والطراز كان أولى الصفات المميزة التي استرعت انتباهي عند دخولي المدينة. وهنالك قبتان أو ثلاث مسطحة وغير مزخرفة لا أهمية لها، ولكن القباب الرئيسة جميعها عالية وضيقة وارتفاعها يزيد على طول قطرها بنحو النصف، وهي غنية بالزخرفة بالكاشي المزجج والرسوم، أما الألوان السائدة فهي الأبيض والأخضر، وبعض الكتابات التي تطوق قاعدة القبة هي الأخرى مزخرفة على هذا النمط».[1]

ينتبه بكنجهام إلى الخط العربي المكتوب على ما يشيع أنه مرقد السيدة زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد.[2] «هذا القبر الذي يقع وسط مقبرة واسعة من قاعدة مثمنة الزوايا ذات طنف تقوم في المقدمة...، ويكون الدخول من السقيفة الخارجية إلى الضريح ذاته، أو إلى القاعدة المثمنة الزوايا عبر ممشى يغطيه سقف معقود، وترى فوقه كتابات حديثة مؤرخة في سنة 1131 للهجرة. ولقد استنسخ نيبور تلك الكتابات[3]، وذكر أن في تلك السنة ذاتها دفن حسن باشا، إلى جانب زبيدة الشهيرة، زوجته المتوفاة عائشة، وهي ابنة رجل يدعى مصطفى باشا، وأنه قام في هذه المناسبة

مطبعة أسعد، 1968)، ص 81؛ بكنكهام: وصف بغداد، ص 136.

(1) بكنكهام: وصف بغداد، ص 110.

(2) يصحح مترجم رحلة بكنغهام ما وقع فيه رحالتنا من الخطأ، بل يذكر أنه من الأخطاء الشائعة حول هذا القبر الذي يقع في الكرخ، فالشائع أن هذا القبر يعود إلى السيدة زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد، إلا أن هذا القبر يعود إلى السيدة (زمرد خاتون)، زوج الخليفة المستضيء بالله العباسي وأم الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة 599هـ/ 1202م. وأن السيدة زبيدة دفنت بالقرب من ضريح الإمام موسى الكاظم، وقد أحرق قبرها مع غيره من قبور قريش في الفتنة التي وقعت سنة 443هـ/ 1051م. جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق، ج1، هامش ص 233.

(3) راجع الكتابات التي استنسخها نيبور في علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي في كتابات الرحالة كارستن نيبور)، مجلة أفكار، العدد 234، (كانون الثاني 2016)، ص 142–148.

بإصـلاح البناء كما شـيد إلى جانبه بعضـ المرافق للدراويشـ أو الجوالين الفقراء والمتمسـكين بإيمانهم تمسكاً صـحيحاً...، وتقوم قبالة باب المدخل كتابة عربية خطت في شـكل نقوش على القاشـي، وهذه الكتابة ليست كاملة بسبب اختفاء عدد من قطع القاشي التي دونت عليه)).[1]

يهـدي أحـد دراويش بغداد إلى بكنجهام نسـخة من القـرآن الكريم، والتي سـرقها منه بعض المسـافرين معـه في القافلة التي كان يُسـافر برفقتها في البادية، فيذكر أن «هذا القرآن في أصغر حجم يُمكن أن يكون فيه، ومع ذلك كانت قراءته ممكنة لأنه كتب بخط جيد»[2].

الخط الكوفي

يميز بكنجهام الخط الكوفي في عقرقوف ، ففي جانبها الغربي من دجلة، يزور أحد المستشـفيات الرئيسة للدراويش. والتي يصـفها بأنها بناية «جيدة شيدت من الآجر، وهي كأي من صـروح بغداد، تمّ تشـييدها من ذات المواد التي تُبنى منها البنايات الفخمة في أوروبا في الوقت الحاضر، فالنطاق الكبير في الجبهة ذو شـكل قوطي، وهو جد مرتفع. والأشـرطة الواسعة على كل جانب منه، تضم كتابـات كوفيـة طويلة جميلة خطت بشـكل بارز في صـيغة زخـرف».[3] ويُرجع سـبب تسـمية هذا الخط إلى مدينة الكوفة التاريخية، نقلاً عن كتاب الدكتور فنسنت (Dissertations on the Commerce of Arabia)، والذي يُشير إلى أن الفتـح الإسـلامي لبلاد فارس، قد عمل على فتح طريق عبر شـبه الجزيرة العربية من مكة إلى الكوفة، المدينة التاريخية التي ينسب إليها الخط الكوفي.[4]

---

(1) جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق، ج1، ص 228، 229.
(2) جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق، ج2، ص 182.
(3) جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق، ج1، ص 218.
(4) بكنكهام: وصف بغداد، ص 143.

يتعرف بكنجهام على الخط الكوفي على مباني المدرسة المستنصرية في بغداد، فيذكر أنه شاهد «جبهة البناية المجمعية الشهيرة المعروفة باسم مدرسة المستنصرية، التي ذكرها المؤرخون العرب بأنها طراز إحدى الكليات ومأوى المتعلمين. أما الآن فإنها في حالة تهدم، ولو أن جزءاً منها ما يزال مستخدماً بمثابة خان أو كروان صاري. ويشاهد على واجهة هذا الجزء المتجه نحو النهر عمود سميك يمتد بطول البناية كلها، وقد يبلغ طوله نحواً من مائتي قدم، ويضم كتابة مستطيلة بالخط الكوفي نُقشت في الإفريز العلوي فوق قاعدة مزخرفة، وكلها مصنوعة من الآجر، وقد تهدمت بعض أجزاء الجدار، الذي تمتد حوله هذه الكتابة. وأجري تصليحه دون تجديد الحروف المطموسة حيث تقطع تلك البقع من البناء المتهدم سطور هذه الكتابة في عدة أماكن. وما يزال هذا الشارع يعتبر من أوسع الشوارع العامة في بغداد. فهو قريب من الجسر لأنه يقع على جهته اليمنى حينما يتم عبوره من ناحية الغرب، وعلى ضفة النهر مباشرة. وقد استطاع نيبور أثناء إقامته هنا أن يستنسخ هذه الكتابة بواسطة أحد الملالي حيث ظهر منها أن ذلك البناء قد تم تشييده من قبل الخليفة المستنصر سنة 630 هجرية، أو سنة 1231 مسيحية».[1]

يشير بكنجهام كذلك إلى كتابات بالخط الكوفي على خاتم يرجع لأحد الخلفاء ضمن مقتنيات المقيم البريطاني في بغداد مستر كلوديوس جيمس ريج فيقول: «ومن بين الآثار الغريبة خاتم يزعم أنه لأحد الخلفاء، نقش في بغداد القديمة، ويحتوي على الكلمات (يا الله) بحروف كوفية كبيرة غائرة على مادة تشبه الأختام القديمة. وهنالك خاتم بلوري عليه كتابات عبرية يسهل فك رموزها ولكنها غامضة في كليتها».[2]

(1) جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق، ج1، ص 229، 230.
(2) بكنكهام: وصف بغداد، ص 131.

نيقولا سيوفي

يُعدّ نيقولا سيوفي N. Siouffi واحداً من أوائل مثقفي وباحثي مدينة دمشق، الذين أتيحت لهم فرصة الاحتكاك بالحضارة الأوروبية في أواسط القرن التاسع عشر، واستفادوا منها في تكوين وعيهم، مزاوجين بين معطيات الحضارة الناشئة في أوروبا، وبين جذورهم الحضارية العربية، هذه المزاوجة قادتهم إلى تغيير نمط الكتابة والإنشاء والتفكير، وزاوية رؤية الأشياء مؤسسين بشكل أو بآخر للوعي العربي المعاصر، فكان واحداً من المثقفين المتميزين الثائرين على تقاليد الكتابة والإنشاء والغناء والتفكير التقليدي، الذي كان يطبع تلك المرحلة المصيرية من عمر الدولة العثمانية.

يولد نيقولا بن يوسف سيوفي في 12 أبريل 1829 في مدينة دمشق، في أسرة تعود بجذورها إلى العرب الغساسنة الذين كانوا يحكمون سورية الجنوبية قبل الفتوحات العربية الإسلامية، واستوطنت هذه العائلة دمشق في القرن الثاني الهجري إبان الدولة الأموية، واعتنق بعض أفرادها الإسلام، واشتهر بصناعة السيوف الدمشقية حتى نكبة تيمورلنك 656هـ/ 1258م.

يدرس سيوفي اللغتين العربية والفرنسية بمدرسة الآباء الليعازريين، ثم اللغتين التركية والإيطالية، واتصل بالأمير عبدالقادر الجزائري، فقربه إليه واستخلصه واصطحبه مترجماً في إحدى سفراته إلى باريس والقسطنطينية، وأهداه نسخة من كتابه (ذكرى العاقل)، وكتب عليها بخط يده: «هذه الرسالة العجالة ألفها كاتب هذه الأحرف بالتماس بعض أحبته بباريس، وأهديت منها هذه النسخة لعوض ولدي العزيز الترجمان نيقولا سيوفي نفعه الله بالعلم، وفتح له أقفال الفهم، لما له علينا من حقوق الخدمة وحسن الصحبة، في 27 صفر 1289هـ/ 8 مايو 1872م»، والنسخة في خزانة

يوسف اليان سـركيس. وفي أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس كُتب كثيرة متبادلة بين الأمير المذكور وسيوفي.

يعمل سـيوفي مترجماً في السـفارة الفرنسـية بدمشق في خمسـينات القرن التاسـع عشـر، ومنح الجنسـية الفرنسية، وذلك في 5 ديسـمبر 1866. وفي سـنة 1873 تم تعيينه في القنصـلية الفرنسـية بحلب، وبقي فيها إلى سـنة 1877، ثم نقل إلى مثل هذه الوظيفة في القنصلية الفرنسية بدمشق. وفي 4 أكتوبر 1877 أصـبح قنصلاً في الموصل، وأنعمت عليه الجمهورية الفرنسية في 12 يوليـو 1880 بوسـام فارس فرقة الشـرف Chevalier de la legion Honneur. وفي 5 ديسـمبر 1889، عين بوظيفة قنصل من الدرجة الثانية، ومع هذا فقد بقي في الموصـل يقوم بوظيفة القنصلية إلى 30 مارس 1893، فأحيل إلى التقاعد، وأنعم عليه برتبة قنصـل من الدرجة الأولى تكريماً له، وقرر الاستقرار في لبنان، وسكن قرية (بعبدا)، وبقي فيها حتى أدركه أجله في 20 يناير 1901.

يزور الموصـل أثناء وجود سـيوفي ويلتقي به الرحالة الفرنسـي هنري بنديه عـام 1885، وقـد أشـار له في أكثر من موضـع من رحلته فقد دعاه سـيوفي إلـى منزلـه هو ومن معه لتناول الغداء وأهداه نسـخة من كتابه (الصـابئة عقائدهم وتقاليدهم)، أخبره عن اكتشـافه مسـجد (السلطان لؤلؤ). وقد كتب بنديه عن سيوفي: «نخرج باكراً لكي نلتقط بعض المناظر للموصل رغم فضـول الكثيرين الذين يحيطون بنا، إثر عودتنا نمضـي لدى السيد سيوفي الذي يسـتقبلنا بكل لطف كما كنا نتوقع. أصـل مسـيو سـيوفي من دمشـق، عمل ترجماناً مدة طويلة للشـيخ عبدالقادر الجزائري، وكان له صديقاً، إنه متبحر باللغة العربية، يمتلك مجموعة ميداليات من أغرب ما يكون».[1]

(1) سهيل قاشا: مرجع سابق، ص 141.

يولـع سـيويـ بالتاريـخ، وقد اسـتطاع أن يحصـل على خـبرة معرفية عبر عنهـا باهتمامات خاصـة بالتاريـخ العربي، وآثـار منطقة الشـرق الأدنى، فكتـب الكثير في هذا المجال، وله دراسـة عن المسـكوكات العربية القديمة، وأبحـاث في المسـكوكات تدل على خـبرة تامة واستقصـاء في البحث. وكان يستعين بنساخين من أهل الموصل ينسخون له الكتب الثمينة التي يجدها في خزائن الكتب الموصـلية، فنسـخوا له عدة كتب منها، باعها لمتاحف أوروبا، ومن الكتب الفريدة التي حصـل عليها سـيويـ كتاب (ترجمة عربية لكتاب ديسقوريدس) في تصوير النباتات والحيوانات وخواصها، فقد كلف النساخ السيد مصـطفى الصائغ باستنساخها عن نسـخة قديمة كانت في المدرسة المحمديـة بجامـع الزيـواني في الموصـل، فاعتنى هـذا باستنسـاخها ونقل صـورها بغاية الدقة. ثم إن سـيويـ أخذ الأصل والنسـخة الجديدة إلى دار يونسـ بك بـن عبدالرحمن باشـا الجليلي متولي الجامـع المذكور، فأعجب يونس بك بخط النسـخة الجديدة، وجمال صـورها، فعرض على سيويـ أن يحتفظ للوقف بها، وأن يأخذ سـيويـ النسـخة القديمـة، وهي على ما يقال مكتوبـة على رق فوافـق على هذا، وجمع الكثير من المخطوطات، واسـتطاع أن ينشر دراسة في واحدة من أهم المجلات الاستشراقية المعروفة في العالم وهي المجلة الآسـيوية، إضافة إلى وضـعه عدداً من الكتب المرجعية المتعلقة بشمال العراق؛ كونه عمل قنصلاً لسنوات عدة.

يترك سـيويـ مجموعة من الكتابات أهمها: (مجمـوع الكتابات المحررة في أبنية مدينة الموصل Notes historiques et exlicatives sur les inscrip-tions de la vill de Mossul.)، ويتألف من مجلدين، جمع في الأول الكتابات العربية، وفي الثاني علق على هذه الكتابة. واعتمد في تعليقاته على ما سمعه مـن المعمرين من أهل الموصـل، وعلى كتب ياسـين بن خـير الدين الخطيب

العمري، وخاصة كتابه (الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون)، واعتمد كذلك على كتاب (منهل الأولياء ومشرب الأصفياء في ذكر سادات الموصل الحدباء)، لمحمد أمين بن خير الله الخطيب العمري، وكتاب (الانتصار للأولياء الأخيار)، ليوسف بن عبدالجليل الحلبي، وكلها مخطوطة، وانتهى من التعليقات سنة 1881 كما يتضح من التاريخ الذي على المخطوط.

لله كتاب عن ديانة الصابئة واعتقاداتهم وعاداتهم Etudes sur la religion des soubbas M. N. Siouffi، طبع في المطبعة الوطنية بباريس سنة 1880، وترجم هذا البحث إلى الروسية، وطبع في تفليس سنه 1889. ولائحة تتضمن ما ارتكبه البروسيون في فرنسا من المظالم والمسروقات والقساوات أثناء حرب سنة 1870 طبع في بيروت سنة 1871. وله كذلك مقال عن ختم السلطان المغولي الجايتو – إنجيتو، خدا بنده، نشر في المجلة الآسيوية بباريس سنة 1869، المجلد الثامن، الصفحات (331–345). وأما أبحاثه التي نشرها عن النقود الإسلامية، فتضم (كتالوج النقود العربية في سنة 1879 au catalogue de monnaies arabes pubes publie en 1879) المطبوع في الموصل سنة 1891. وقائمة بالنقود الإسلامية Liste des Monnaies Musulmanes suite، طبع في الموصل سنة 1880.

يصدر في شهر سبتمبر 1873 قرار بتعيين نيقولا سيوفي قنصلاً في بغداد، وكان يومها في بيروت يعمل في القنصلية الفرنسية هناك، منذ عام 1861، فغادر بيروت عن طريق البحر إلى طرابلس، ثم اللاذقية، ثم إسكندرونة، ومن هناك سلك الطريق البري مع حاشية كبيرة تضمّ عائلته وبعض رجال الشرطة ومجموعة من الأطباء النمساويين، وغيرهم، وقد سلك الطريق القديم الذي اعتادت القوافل أن تسلكه، فوصل إلى مدينة حلب ومنها انطلق إلى ديار بكر، حيث بدأت رحلته النهرية إلى بغداد، فمر بعشرات القرى والمدن

الأثرية، وصادف أناساً من مختلف المشارب، وفاجأته بعض العادات والأوضاع الاجتماعية، وبعض المصادر الطبيعية، فوصل إلى الموصل، ومنها انطلق إلى بغداد، وقد استغرقت رحلته هذه من 9 سبتمبر إلى 1 نوفمبر 1873، أي حوالي 52 يوماً، وقد سجل فيها أهم ما شاهده وأسماء جميع الأماكن التي مر بها والمسافات بينها، بُغية جعلها دليلاً للمسافر من سورية إلى العراق.

تكمن أهمية هذه الرحلة في أنها واحدة من الرحلات التي قام بها أحد أبناء المنطقة من دون أن يكون هدفه دينياً، على شاكلة الرحلات إلى البلاد المقدسة التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، فالهدف من تدوين هذه الرحلة هو علمي بحت، كما أن أسلوب صياغة الرحلة بعيد عن التكلف الإنشائي، الذي كان يطبع كتابات ذلك العصر، عبر السجع والطباق والجناس وما شاكل ذلك. ونشرت هذه الرحلة في مجلة الجنان البيروتية عام 1874 في حلقات مسلسلة، ولم ينشر اسم مؤلفها في صدر المقالة بشكل واضح في الحلقة الأولى؛ بل نشر توقيعه في رسالته إلى رئيس تحرير المجلة، وقام تيسير خلف بجمعها في كتاب ونشرها بعنوان (رحلة نقولا سيوفي 1873).[1]

الخط العربي

يلفت الخط العربي المكتوب على جدران وجامع الشيخ لؤلؤ بالموصل انتباه نيقولا سيوفي، فيكتب يقول: «جامع عجيب مدفون فيه السلطان لؤلؤ، المدخل وضيع، إلا أن الباب البرونزي ذو صنع جميل، وقد جعل الصانع اسمه بارزاً وسط أحد الأطر. الضريح في الداخل، من خشب مشغول، وغطاء من قماش أخضر، والحيطان عارية ماعدا شريط مرمري يعلو متراً حول الجدران، يعلو هذا الشريط شريط آخر من مرمر أسود، عرضه عشرون إلى خمسة

(1) نيقولا سيوفي: رحلة نيقولا سيوفي 1873، تيسير خلف (تحقيق)، (دمشق: التكوين للتأليف والترجمة والنشر، 2009)، ص 5-13.

وعشرين سنتيمتراً، نقشت عليه آيات قرآنية من تطعيم مرمر أبيض».[1]

يمر بالموصل أثناء وجود نيقولا سيوفي بها الرحالة الفرنسي جون آشر، وانطباعاته كالعديد من الرحالة تأتي نتيجة مشاهدات سريعة، وملاحظات قد يبديها أشخاص معينون لا يعكسون وجه الحقيقة، فلا عجب أن يقع في مبالغات وأخطاء ينبغي التنبه إليها، وعدم اعتبارها حقائق تاريخية موثوقة.[2] ويشير جون آشر إلى أنه لاحظ وجود خطوط عربية على قبر قديم في سنجار بالموصل، أبدى بها نيقولا سيوفي اهتماماً خاصاً؛ بل إنه يُكلف من يقوم بنسخها، ويبعث بها إلى العاصمة الفرنسية، فكتب يقول: «نمر قرب قبر عجيب وقديم جداً، إنه من الطابوق المشوي، تحمل الواجهة الشمالية منه كتابة يبدو أنها بالغة الأهمية، لكنني مع الأسف لست قادراً على أن أحكم عليها، إلا أن المسيو سيوفي قنصلنا، المتبحر باللغة العربية يقدرها حق التقدير، وقد بعث بطبعها إلى باريس، أما من الناحية الفنية، فإن هذا القبر غريب حقاً، إذ توجد من جميع أطراف الباب، أسفل الكتابة، مقطعان من طابوق طبيعي مسبوك، برسوم مذهلة، وخطوط عريضة عرض سنتمترين، موشاة بزمرد الخزف المطلي الأزرق بشفافية كبيرة خالصة تماماً».[3]

الخط الكوفي

يلحظ نيقولا سيوفي في مدينة ديار بكر بكل وضوح كتابات كوفية على سور المدينة ترجع لأيام الخلفاء العباسيين، فيكتب يقول: «أما مدينة ديار بكر، المدعوة قديماً بآمد، فهي مرتفعة المركز، وأكثر أبنيتها من الحجر الأسود، ومحاطة من جميع أطرافها، بسور متقن البناء، وهو إلى الآن بحالة محفوظة

(1) نيقولا سيوفي: مرجع سابق، ص 142.
(2) سهيل قاشا: مرجع سابق، ص 86.
(3) سهيل قاشا: مرجع سابق، ص 116.

نــادرة في غير بلاد، حتــى أن القادم إلى المدينة يراها عــن بعد كقلعة، وفي نظرنا في بعض جهات السور كتابات كوفية من أيام الخلفاء العباسيين».[1]

يكتــب كذلك عــن كتابات كوفية في قرية حصــن كيفا فكتب يصــفها يقول: «قرية كبيرة ممتدة من قمة الجبل إلى الشــاطئ تُدعى (حصــن كيف)[2]، فأوقفنــا الطوفــين، وتحولنــا إليها، وبعــد أن جلنــا بأزقتها وأســواقها غير المســتوية، نظرنا أكثر بيوتها وحوانيتها منقورة في الصخور، وبأعلاها قلعة متهدمة لم يبق منها إلا الأبواب، فدخلنا الباب الأول ثم الثاني، وكلاهما من حديد، ونظرنا على الثاني كتابة عربية بها يذكر أنه أمر بهذا البناء سليمان بــن غازي، ولكن مــن دون تاريخ، ولعل ســليمان المذكور من دولــة بني أرتق ملــوك ماردين وديار بكر أو من الســلجوقيين. ثم انتهينــا إلى الباب الثالث فوجدنــا على جوانبه كتابــات كوفية مربعة محتوية على الشــهادتين (لا إله إلا الله، محمــد رســول الله)، وبعد أن نزلنا من القلعــة دخلنا جامعاً قديماً متهدماً لم يبق منه ســوى بعض قناطر، وقــد جعلوه مقبرة وبه منارة جميلة جــداً محفوظة من الخــراب، وعليها أشــغال وكتابات عربيــة دقيقة للغاية، ويوصل إلى أعلاها بسلمين كل منهما عدد 38 درجة، على شاطئ النهر من كل جهة دعامة مســتندة إلى برج مســتدير، وعلى القاعدة الســفلى من كل دعامة رأينا ونحن في الطوف صــوراً قديمة منحوتة، ولا بُد أن هذه الدعائم كان عليها في الأزمنة السالفة جسر عظيم».[3]

---

(1) نيقولا سيوفي: مرجع سابق، ص 35.

(2) بلــدة تركيــة حالياً، تقع على ضــفاف نهر دجلة، تابعــة لمحافظة بطمان جنوب شــرق تركيا، بها منطقة أثرية. وكيفا الســريانية تعني الصــخرة، وأيضــاً اســم بطرس الرســول بالســريانية، وقد أصبحت في الفترتــين الأيوبيــة والمملوكيــة مملكة أيوبيــة كانت إلى جانب حمــاة آخر الممالك الأيوبية الصــغيرة في المنطقة. ويكيبيديا الموسوعة الحرة، حصن كيف، (تمت الزيارة بتاريخ 7 يونيو 2017).

(3) نيقولا سيوفي: مرجع سابق، ص 43، 44.

جين ديولافوا

تنجح القليلات من الرحالات في رسم وتصوير رحلاتهم في الجزيرة العربية، من بين هؤلاء النسوة الرحالة والأديبة والمستكشفة والصحفية والروائية وعالمة الآثار والمؤرخة الفرنسية مدام ديولافوا madame Dieulafoy (1851 – 1916)، المعروف عنها حبها وشغفها وولعها بالتاريخ القديم، والتي قامت برحلتها إلى العراق في عام 1299هـ/ 1881م، في عهد والي بغداد تقي الدين باشا (1867–1869)، وتقدح وتذم في العثمانيين من ولاة وأتباع، وجدبت إرادتهم، واستقبحت سيرهم، ويفهم من أقوالها أنها كانت تكرههم كأكثر الأمم الأوروبية يومئذ، وهي بغضاء موروثة، كما يُفهم من خلالها أنها كانت تُحب الفرس، وهم أعداء العثمانيين آنئذ.

يعيش في فرنسا بين سنتي (1843–1920) مهندس معماري معروف، وعالم أثري كبير يدعى (مارسل ديولافوا)، له بحوث وتحقيقات قيمة في فن العمارة في الحضارات الشرقية. ومن المسائل التي تصدى لها والأسئلة التي أثارها: هل كان للحضارة الساسانية تأثير في الفن الإسلامي؟ ولقد تكلف في سبيل الإجابة عن هذا السؤال الكثير، إذ لم يشف غليله كل ما وقع في يديه من كتب تعنى بمثل هذه الموضوعات في أوروبا. ولم يجد بُداً من شد رحاله إلى الشرق، ليستقي منه معلوماته ويلبي طلبه في الإجابة عن السؤال.

يمم وجهه شطر الشرق أول مرة في عام 1881 على حسابه الخاص، وأمضى ما يقرب من سنة في تركيا وإيران والعراق، يُدقق النظر ويطلع على الأبنية التاريخية العتيقة فيها، حتى فتح الله عليه الجواب واطمأن له. وفي هذه السفرة كانت زوجه معه وهي معروفة بأسلوبها الرقيق وبموهبتها الفنية في الرسم، ولم تدع الفرصة تفوتها فأخذت على نفسها تسجيل يومياتها

وخواطرها منذ إقلاعها من مرسيليا حتى عودتها ثانية إلى فرنسا في كتاب بعنوان (رحلة ديولافوا إلى إيران وشوش وكلدة)، ولقد كان لصدور هذا السفر الجليل في باريس صداه البالغ وأثره البعيد ليس فقط لما تضمن من طرائف مستملحة وأخبار غريبة عن تلك المناطق التاريخية؛ بل لما احتواه مما توصل إليه زوجها من حقائق واستكشافات، وإن كان قد خانه التوفيق في بعضها فبالغ في أهمية الفن الساساني وأثره في فن العمارة الإسلامية.

تولد جين بول هنري راشيل ديولافوا Jeanne Paule Henriette Rachel Dieulafoy بمدينة تولوز بفرنسا في 29 يونيو 1851، لعائلة ثرية، ودرست في دير العذراء في أوتيل إحدى ضواحي باريس (1862–1870)، وتزوجت بمارسيل ديولافوا في مايو 1870، وهي لا تزال في ربيعها التاسع عشر، ثم تطوع الزوجان في الحرب الفرنسية البروسية. وفي عام 1879 قرر الزوجان تكريس حياتهما للبحث عن الآثار، حيث قاما معاً، كما سبق الذكر، برحلة إلى وسط فارس عام 1881، بدأها من مارسيا إلى القسطنطينية، العاصمة العثمانية، وأبحرا على الساحل الشرقي للبحر الأسود على متن قارب روسي، وواصلا رحلتهما إلى القوقاز وأذربيجان وتبريز، ومن هناك سافرا إلى طهران وأصفهان وشيراز، حيث قدم الزوجان العديد من الرسوم التوضيحية، واكتشفا الكثير من القطع الأثرية، التي نقلت إلى باريس، حيث لا تزال معروضة في متحف اللوفر، ولهذا منحتهم الحكومة الفرنسية لقب فارس، ووسام الشرف عام 1886.

يواصل الزوجان رحلاتهما بعد عودتهما من فارس، حيث قاما برحلات في أسبانيا والمغرب بين عامي (1888–1914)، حيث تطوعا للذهاب إلى المغرب في الحرب العالمية الأولى، حيث اعتلت صحة ديولافوا وأصيبت بالزحار الأميبي، واضطرت للعودة إلى فرنسا حيث توفيت بمدينة غاردون

العليا بفرنسا في 25 مايو 1916. وكانت ديولافوا تفضل في ترحالها ارتداء ملابس الرجال، وتقصير شعرها كالرجال، وربما ذلك تجنباً للصعوبات التي قد تواجهها في حال سفرها كامرأة في مجتمع مسلم لديه عاداته وتقاليده التي تختلف كلية عن عادات وتقاليد مجتمعها الفرنسي، وتركت ديولافوا الكثير من المؤلفات، منها فارس والكلدانيين (باريس: 1887)، الشرق تحت الحجاب: شيراز بغداد L'Orient sous le voile. De Chiraz à Bagdad 1881–1882 (باريس: 1889)، في سوسة À Suse 1884–1886 (باريس: 1888)، المتطوعين Volontaire (باريس: 1892)، قشتالة والأندلس (باريس: 1908)، إيزابيل العظمى (باريس: 1920). وكانت عضوة في تحكيم الجائزة الأدبية منذ عام 1902 وحتى وفاتها.

تُسجل ديولافوا في رحلتها ملاحظات طريفة في سيرة وعادات العراقيين وألبستهم، وأحوالهم الاجتماعية الأخرى تسجيلاً مفصلاً، وغيرهم من الشعوب للمقابلة والمقايسة. وتكشف كتاباتها عن ثقافة تاريخية متميزة، كما تذكر الرأي السياسي لهذه الرحالة التي لم تعتد غير التصريح في كتابتها، وهو ما يجعل رحلتها إلى القصة أقرب منها إلى الرحلة، فلا ينفك القارئ فيها مُقبلاً على قراءتها حتى يتممها، مشغولاً بها، مفتوناً بما يتخللها من ملاحظات بارعة، ونكت فائقة، وانتقادات مرة. وفضول غريب يُصور طبيعة نسوية خاصة لا أثر لها عند غيرها من الرحالات الغربيات، ويُمثل طرازاً من التفكير يجب أن نطلع عليه، كما يُعرب عن حقيقة إخلاصها لزوجها، ومكابدتها المشاق من أجله، وأسلوبها أدبي بارع ممتع تعمدت فيه الإطالة خوفاً من أن يمل القارئ، فالرحلة قطعة أدبية رائعة وماتعة.[1]

---

(1) مدام ديولافوا: رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة وبغداد 1881م/ 1299هـ، علي البصري (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2007)، ص 7–10.

الخط العربي

ترصد ديولافوا الخط العربي على إحدى بوابات مدينة بغداد، إذ وجدت فوق إحدى بواباتها نقشاً يؤرخ فتح السلطان مراد الرابع، سلطان الدولة العثمانية (1623–1639)، لبغداد مع جيوشه العثمانية... وجاء في هذه الكتابة ما معناه: (دخل السلطان مراد في 24 ديسمبر سنة (1638) بغداد ظافراً بعد أن حاصرها مدة أربعين يوماً وكان دخوله من هذا الباب). وأغلق هذا الباب (هو باب الطلسم المعروف قديماً بباب الحلبة، نسفه الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى في مارس سنة 1917) بعد دخول السلطان، وهي تتكئ على برج مرتفع صنع من الآجر، وفوق السافات الأولى منها تاريخ إنشاء هذا الحصن الدفاعي ولقد جاء ذلك بعد ذكر آية من القرآن الكريم هي: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)، وجاء في تسجيل تاريخها ما معناه: (هذا البناء أقيم بحسب أوامر الله سبحانه وتعالى، وأمر زعيمنا وكبيرنا الإمام أبي العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين[1]، الذي يجب على العالمين أن يقدموا له فروض الطاعة والإخلاص جميعاً، أي إنه أنشئ بفضل الخاضع لله أبي العباس الذي خلفه زينة للعالم وجعله دليل وجوده... واستمطروا شآبيب الرحمة على روح آبائه وأجداده الطاهرين والفخر والعزة له، وأدعو أن يبقى ملاذ المؤمنين وحامي المستضعفين، أقيم هذا البرج سنة 628هـ (1230م) (الصواب: 618هـ/ 1221م) وانتهى العمل به... اللهم صل على نبينا ورسولنا محمد وآله الطيبين الطاهرين).[2]

تُشاهد ديولافوا كذلك الخط العربي على بناية المدرسة المستنصرية،

(1) خليفة عباسي حكم في بغداد بين عامي (575هـ/ 1189م– 622هـ/ 1225م).

(2) مدام ديولافوا: مرجع سابق، ص 69، 70.

والتي تأسست على يدي الخليفة المستنصر بالله العباسي في عام 630هـ/1233م، وكانت مركزاً علمياً وثقافياً هاماً في جهة الرصافة من بغداد، وتكتب تقول: «وعلى مسافة أبعد (من منارة سوق الغزل) توجد مدرسة عتيقة (تعني المدرسة المستنصرية) اتخذها الترك اليوم مخزناً للكمرك. وبناية هذه المدرسة جميلة جداً وتزينها نقوش وكتابات كتبها خطاطون معروفون، والواقع أن الشخص يؤخذ بروعة تلك الكتابات والنقوش على سذاجتها».[1] ونلحظ نظرة الرحالة الاستعلائية من لفظتها الأخيرة، فبالرغم من اعترافها بروعة هذه الكتابات والنقوش في دلالة على براعة الخطاط العربي المسلم عبر قرون طويلة، هي عمر حضارة عربية إسلامية ازدهرت في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في بحار الجهل، نراها تعتبرها (ساذجة)، وهي النظرة الاستعلائية الغربية التي كانت، ولا تزال، سائدة في النظر للشرق وحضارته، وخاصة الدولة العثمانية، التي كانت تمثل حينئذ دولة الخلافة الإسلامية.

(1) المرجع السابق، ص 111، 112.

يوليوس أويتنج

يولد الرحالة والمستشرق الألماني يوليوس أويتنج Julius Euting (1839 – 1913) في مدينة (شتوتجارت) الألمانية، في 11 يوليو 1839، ويتلقى تعليمه الجامعي في علم اللاهوت، في معهدي بلاوبويرن وتوبنجن، وينتقل لدراسة العلوم الدينية في جامعة فورتمبرج، إلا أنها لم تستحوذ على رضاه، فينتقل إلى جامعة توبنجن بألمانيا ليتخصص في الدراسات الشرقية لمدة أربعة أعوام (1857–1861)، ويتلقى دراساته العليا في اللغات والدراسات الشرقية في جامعات: لندن وأكسفورد وباريس، ثم يدرس علم الآثار والنقوش واللغات القديمة، وينبثق منها اهتمامه بالسفر والبحث العلمي، والكتابة حول النقوش والآثار، والدراسات الشرقية.[1]

يبدأ أويتنج حياته العملية في عام 1866 موظفاً في مكتبة معهد مدينة توبنجبن. ويقوم خلال الفترة (1867–1870) بعدد من الرحلات، لجمع ودراسة النقوش السامية القديمة، ويُودع الكثير منها بجامعة القيصر فلهلم في شتراسبرج. ويُعين بعد انتهاء الحرب الألمانية–الفرنسية (1870–1871)، مديراً لمكتبة القيصر الجامعية. وفي عام 1869 يزور تونس، اليونان، تركيا، مصر، سورية، فلسطين، الجزائر، والجزيرة العربية. ثم يُعين بروفيسيراً في كلية الفلسفة بجامعة شتراسبرج في عام 1880. ويُخطط منذ عام 1882 لزيارة الجزيرة العربية مرة أخرى، ويزداد حماسه بعد أن يعلم بقيام الرحالة الإنجليزي تشارلز داوتي Charles Doughty (1843 – 1926) بزيارة مدائن صالح، واكتشافه العديد من

(1) علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي.. ذاكرة جمالية ومعين للباحثين من كتابات الرحالة يوليوس أويتنج)، مجلة ومضات، العدد 26 (مايو 2016)، ص 43–45.

النقوش النبطية.[1]

تبدأ رحلة أويتنج للجزيرة العربية في شهر مايو 1883، وتنتهي في أغسطس 1884، يرافقه الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر Charles Huber (1837 – 1884)، الذي سبق له زيارة الجزيرة العربية في الفترة ما بين 1878–1882. ومن أجل أن يكون أويتنج مستقلاً اقتصادياً عن هوبر، الذي تحملت وزارة التربية والتعليم الفرنسية تكاليف رحلته العلمية، فقد قام بتوجيه خطاب إلى حاكم مقاطعة الألزاس واللورين، الكونت مونتفيل يلتمس منحة مالية بمبلغ 12 ألف مارك؛ لتغطية مصاريف رحلته، وإجازة مدفوعة الراتب من عمله أستاذاً في الجامعة. إلا أن الرفيقين لم يُكملا الرحلة معاً، حيث افترقا بسبب الغيرة بينهما، وخاصة من طرف هوبر، الذي كان يُقدم أويتنج على أنه خادمه، ولم يذكر اسمه في يومياته أبداً، وحاول عدة مرات إقناع أمير حائل أن يسمح له بزيارة تيماء والعلا من دون أويتنج رغم اتفاقهما المسبق على زيارة هذه الأماكن معاً، وإنجاز هدفهما بنسخ النقوش الموجودة في المنطقة، كما قام هوبر بنسخ نقوش يعلم أن أويتنج يُريد استنساخها، ولهذا افترق الرفيقان قبل النهاية المأساوية لهوبر، على يد دليليه في 29 يوليو 1884 بالقرب من جدة.[2]

يواصل أويتنج رحلته منفرداً إلى أن يصل ميناء (الوجه)، بمنطقة تبوك، في 5 أبريل 1884، ومنه يُبحر إلى ميناء القصير المصري، وبعد مسيرة خمسة أيام على الجمال يصل إلى مدينة قنا على نهر النيل، حيث يركب سفينة نهرية إلى أسيوط، ومنها يستقل القطار إلى القاهرة، ثم بورسعيد،

---

(1) عبد العزيز العنزي: (رحلة أويتنج من الشمال وحتى مدائن صالح)، مجلة ترحال، العدد 58، (ربيع الآخر 1436هـ/ فبراير 2015م)، 74–77.

(2) شارل هوبير: رحلة في الجزيرة العربية الوسطى 1878–1882، إليسار سعادة (ترجمة)، (بيروت: كتب للنشر والتوزيع، 2003)، ص 11، 12.

يافا، القدس، سمران، بيتراس، وأخيراً يُبحر من ميناء تريست الإيطالي إلى ألمانيا. وهكذا يعود إلى وطنه بعد محاولات عدّة للحصول على حجر تيماء، الذي اكتشفه هوبر خلال رحلته الأولى إلى جزيرة العرب في عام 1879، ولكن أويتنج طالب بالحجر مُدّعياً أنه هو الذي اشتراه. وتُعدّ رحلته تلك من أهم رحلاته العلمية، حيث جمع خلالها آلاف النقوش الآرامية والنبطية والسبئية واللحيانية، ونشرها في مؤلفات عديدة.[3]

يقوم أويتنج منذ وصوله إلى ستراسبرج بالعمل على تحقيق ما جمعه من مادة علمية أثناء رحلته، وفي عام 1903 يختاره فلهلم الثاني Wilhelm II، قيصر الرايخ الألماني الثاني (1888–1918)، عضواً في فريق من المختصين الألمان لنقل قصر المشتى الأموي الذي اكتشفه الباحث النمساوي ألويز موزيل Alois Musil (1868 – 1944) من شرق الأردن إلى ألمانيا. ثم يُعين أويتنج رئيساً لمكتبة الجامعة (1900 – 1909). وتتدهور صحته في أواخر أيامه مما يضطره إلى التوقف عن السفر.[4] ويقوم بنشر يوميات رحلته بعد عشر سنوات من انتهائها، فيُصدر الجزء الأول في عام 1896، أما الجزء الثاني فيُنشر عام 1914، بعد عام من وفاته، التي كانت في يوم 2 يناير 1913 في مدينة ستراسبورج[5]. ويعتمد أويتنج في يومياته على الوصف العلمي الصحيح، الذي يقوم على المشاهدة الواقعية، ويبتعد عن الخيال القصصي، ويحرص على تقديم وصف دقيق للمدن والقرى التي زارها،

(3) عوض البادي: الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، نص رحلة البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نجد عام 1893م/ 1310هـ، (الرياض: شركة دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، 2002) ص 56.

(4) يوليوس أويتنج: رحلة داخل الجزيرة العربية، سعيد بن فايز السعيد (ترجمة)، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 1999) ،ص 11–16.

(5) عوض البادي: الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية (منطقة الجوف ووادي السرحان) 1845–1922، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002)، ص 173، 174.

والطرق والمسالك التي سار عبرها، ومناهل الآبار وموارد المياه التي وردها، والجبال والصحراء، والآثار التي شاهدها، والمباني، والقلاع، والحصون التي احتمى بها، وأحوال الطقس التي أحس بها، كما يحرص كذلك على تقديم وصف مُفصل للعادات والتقاليد، وأحوال المعيشة، للمجتمعات التي زارها، ولم يكتفِ بالوصف ونقل مشاهدته اليومية، بل إنه يُسخّر موهبته في الرسم؛ لينقل صورة واقعية لمعلم، أو شخص، أو خلافه، لتكون المحصلة كتاباً يتضمن معلومات نادرة وقيّمة؛ قد لا نجدها في أي مصدر آخر، يُفيد الباحث والمؤرخ والجغرافي والاقتصادي والاجتماعي.[1]

يتضح أن هدف أويتنج كان علمياً بحتاً، إذ أدت رغبته في جمع النقوش ودراسة الكتابات العربية القديمة إلى قيامه برحلته الشاقة إلى جزيرة العرب، التي استغرقت ما يربو على ثمانية أشهر، وكان حريصاً على نقل واستنساخ كل نقش وقعت عينه عليه، كما قدم وصفاً دقيقاً لكل موقع جغرافي أو عمراني أو أثري مر به. ويُمكن التعرّف على مغزى رحلته من قوله: «اقتربنا الآن أكثر من بنايات المقابر الرائعة في مدائن صالح ذات النقوش النبطية الطويلة على واجهاتها، والتي من أجلها كان الهدف الرئيسي لرحلتي إلى جزيرة العرب».[2]

الخط العربي الشمالي

يكتب أصحاب النقوش العربية الشمالية القديمة لغتهم العربية بأربعة خطوط مشتقة من أصل واحد، يختلف بعضها عن الآخر في رسم أشكال بعض الحروف، وهي: الثمودي، الديداني، اللحياني، الصفوي[3]. ويقسّم

(1) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 9، 10.
(2) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 220.
(3) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 89.

أويتنــج مجموعــة النقوش التي عـثر عليها مكتوبة في طريقــه من حائل إلى تيماء إلى نوعين من الخطوط: الخط العربي الشـمالي القديم (الثمودي)، والخط النبطي، ثم يقسّمها إلى مرحلتين، الأولى تُمثلها النقوش التي يظهر عليها لون القشـرة الصـخرية الفاتحة، وهي الأحدث عهداً، ويعود تاريخها إلــى ما قبل ألف وخمســمائة سـنة، مـن تاريخ رحلتـه في عـام 1883. أما المجموعـة الأخـرى والتي أخذت خطوطها مع مرور الوقـت لوناً رمادياً فهي الأقـدم عهداً، وتُمثلها النقوش المكتوبـة تحت النقوش الأحدث عهداً. و«هنا يتبادر سـؤال مؤداه، كم من مئات السـنين تفصـل بين المرحلتـين، وإلى أي فترة تعود أقدم النصـوص هنا، لقد شعرت بالأسى لأنني حينما كنت أنسخ النقوش لم أهتم كثيراً بلون النقش، هل هو ذو لون فاتح يميل إلى الصــفرة أو أنه رمادي غامق».(1)

والخـط النبطي، هو الخط الذي اشـتقته قبائل الأنبـاط العربية في القرن الثالث قبل الميلاد من الخط الآرامي، واسـتمروا يكتبون به نصوصهم حتى القـرن الرابع الميلادي، ومن هذا الخط تطـور الخط العربي الذي نكتب به اليوم.(2) ويتكون الخط النبطي من اثنين وعشرين حرفاً، تحتوي على ثمانية وعشـرين صـوتاً، ويكتب من اليمين إلى اليسار. ويتميز باستخدام الإعجام في بعض نصوصــه المتأخرة، وربط الحروف بعضــها ببعضـ، والتفريق بين أشكال الحرف في أول الكلمة وآخرها.(3)

أمــا الخــط الثمودي، فلا يزال أصــل اشــتقاقه محط نظر بين الدارســين، فالبعض يعتقد أنه مُشـتق من خط المســند، الذي بدأ اســتخدامه في جنوب

(1) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 149، 150.

(2) علي عفيفي علي غازي: (الخطوط العربية الأولى: نشـأتها وتطورها)، صـحيفة الحياة، العدد 17571، (14 مايو 2011).

(3) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 89.

الجزيــرة العربيــة منذ القرن التاســع قبل الميــلاد.[1] والبعضــ الآخر يرى أنه مشــتق مــن الأبجدية البروتوســينائية. وتعود أقدم النصــوص الثمودية المعروفــة حتــى الآن إلى القرن الســادس قبل الميلاد. أمــا أحدثها فيؤرخ في القرن الرابع الميلادي، وقد انتشــرت مجموعة النصوص الثمودية في أغلب مناطق الجزيرة العربية، بل تعدى انتشارها حدود العالم القديم ليصل إلى الولايــات المتحدة الأمريكية، حيث كشــف مؤخراً في ولايــة (كولورادو) عن مجموعة من النقوش كُتبت بالخط الثمودي.[2]

الخط الآرامي

يهــدف أويتنــج من رحلتــه للوصــول إلى حجر تيمــاء، المعــروف كذلك بين أوساط الدارسين باسم (مسلة تيماء) الذي عثر عليه الفرنسي شارل هوبر في قصر طليحان، كما يذكر أويتنج، ومحفوظ الآن في متحف اللوفر بباريس تحــت رقم (AO 1505)، ويعود تاريخ هذا الحجر إلى القرن الســادس قبل الميلاد، وعليه نقش مكتوب بالخط الآرامي، ويتكون النص المكتوب من ثلاثة وعشــرين سطراً تتحدث عن أمرين رئيســين: الأول تنصيب أحد الكهنة في معبد الإله الوثني صــلم في تيماء، والثاني ينص على التزام المعابد الأخرى بتقديم محصول إحدى وعشرين نخلة ضريبة لمعبد الإله صلم في تيماء.[3]

يقول أويتنج: «كنت أتحرق شــوقاً ونحن نتجه إلى القصر لرؤية ذلك النقش

(1) عبدالمنعم عبدالحليم ســيد: (دور أســلاف عرب شمال الجزيرة العربية في نشــأة الخط المسند اليمني القــديم)، مجلة الدارة، العدد الأول، الســنة الثامنة، (شــوال 1402هـ/ يوليــو 1982م)، ص 2013-214.

(2) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 119؛ وانظر:

Bill McGlone (and others): Petroglyphs of Southeast Colorado and the Oklahoma Panhandle, (California: Mithare Production Corporation, 1994).

(3) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 160.

النبطي، وبالذات النقش الآرامي القديم، نسبة إلى الشعوب الآرامية الذين أسسوا في مطلع الألف الأول قبل الميلاد ممالك وإمارات متعددة في بلاد الشام وبدؤوا منذ القرن العاشر قبل الميلاد يكتبون نصوصهم ذات الطابع السياسي البحت بخط مشتق من الأبجدية الفينيقية، ويتكون من اثنين وعشرين حرفاً، والذي قرأت عنه في مذكرات هوبر خلال رحلته الأولى للجزيرة العربية، وأرخته في التقرير الموجه من هوبر إلى وزير التعليم الفرنسي إلى فترة تعود على أقل تقدير إلى القرن الخامس قبل الميلاد».[4]

يقوم أويتنج بنسخ النص المكتوب على حجر تيماء بالخط الآرامي، فيظل يفكر فيه، ويقول: «أدى تفكيري في ذلك الحجر إلى إصابتي بالقلق وعدم القدرة على النوم إلى القدر الذي جعلني أنهض عند الفجر، لأنظر من جديد على ضوء الشموع إلى الورقة التي نسخت عليها النقش». ويعثر أويتنج على كتابات بالخط الآرامي على جدران أحد المنازل في تيماء، فيقول: «ذهبت مع صانع السلاح زيدان في جولة خلال المدينة زرنا فيها أولاً منزل الخطيب محمد العتيق، الذي كان على أحد جدران مسكنه الداخلية حجر عليه نقش كُتب بالخط الآرامي».[5]

الخط العربي

ينال الخط العربي اهتمام الرحالة أويتنج، لأنه الصورة المرئية للغة العربية، بالرغم من بدائية حروفه في مراحله المبكرة، والتي لا تعدو في شكلها عن كونها رسوماً بسيطة تنقش على الحجارة بمواد بدائية ومهارات محدودة، ويلفت انتباهه في بلدة الحجر (مدائن صالح)، شمال غربي السعودية، كثرة النقوش المكتوبة بالحرف العربي، ويرى أن ذلك دليل البُعد التاريخي

(4) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 157.
(5) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 161.

والجذور الحضــارية، فيقول: «بعد ســاعتين تقريباً من المسير مررنا بجوار جبـل مُكتظ بنقوش ذات خطوط مختلفة، حيث تعلو صــفحاته نقوش كتبت بالخط الآرامي القديم، والخط الثمودي، والخط النبطي، والخط اليوناني، والخط اللاتيني، وما تنوع هذه الخطوط هنا إلا شــاهد واضــح على العمق الحضــاري والتعاقب التاريخي لبلدة الحجر، أما موضــوعات هذه النقوش فتندرج تحت ما يُســمى (نقوشـ الذكريات)، التي من خلالهــا خلد أولئك القدماء أســماءهم على مر الزمــن، يقول المثل الألماني (يــد المجنون تلطخ الجدار والطاولة)، ولكننا نحن المتخصصــين بالنقوش والخطوط القديمة في غاية البهجة، لأن أيادي أولئك القدماء امتدت إلى الجدار والحجار لتدون عليها أسماءها، فحتى وإن كانت المعلومات التي تحتويها تلك النقوش عديمة المعنى والأهمية؛ فمن تلك الحروف القليلة يُمكن للمرء أن يستنتج معلومات قيّمة حول التاريخ واللغة والحضارة والدين وتاريخ تطور الكتابة».[1]

ينتقـل أويتنج إلــى قرية جبة، التي تبعــد حوالي 90 كيلومتراً شــمال غربي مدينــة حائل، فيعثر على كتابــات بعدد من الخطوط منها النبطي والثمودي والآرامي، والكوفي العربي، فيقول: «بعد نصــف ســاعة من المســير كُنا نقف أمام الصــفحات الصخرية لجبل أم سلمان المملوءة بمئات النقوش، بعضها غير واضح المعالم، وبعضها الآخر عبارة عن أسماء أعلام، وقد لفت انتباهي من بينها ذلك النقش الذي كتب بقلم اللغة العبرية (الصحيح نبطي) وآخر كتــب بالخــط النبطي، وثالث كتب بقلــم النقوش العربية الشــمالية، والذي لا يــزال إمكان اشــتقاقه من الخط العربي الجنوبــي القديم محط نظر بين الدارسين، وأخيراً ذلك النقش الذي كتب بالخط الكوفي، وبين تلك النقوش رسم العديد من الجمال والوعول ومناظر الحرب والصيد».[2]

---

(1) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 220.

(2) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 89.

يُثير الخط العربي بسعة إيقاعه، وإمكاناته الزخرفية، وجماليات نقوشه، شجون أويتنج، فيواصل استكشاف ونسخ كل ما أمكنه من نقوش ونصوص وكتابات، فيقوم بنسخ الكثير من النقوش المكتوبة بالحرف العربي في مدينة حائل، فيقول: «في مكان يُسمى (ألائي) وجدنا مجموعة من النقوش النبطية، وأخرى عربية قديمة، ترافقها بعض الرسومات الصخرية البدائية لبعض أشكال الحيوانات، وفي هذا المكان المحمي نسبياً أقام حيلان ونومان المخيم، أما نحن فقد استفدنا من ضوء النهار المتبقي في نسخ النقوش».[1]

الخط الكوفي

يُعتبر الخط الكوفي من أجمل الخطوط في العالم؛ فهذا الخط البديع باختلاف أنواعه وأشكاله، يُبهر كل من يُشاهده، حتى وإن لم يكن هذا المشاهد يعرف كلمة عربية واحدة، ولهذا يُميز أويتنج الخط الكوفي، ففي قرية إثره، شمال السعودية، يُلاحظ فوق باب مدخل منزل شيخ القرية، وعلى عتبة الدار العليا الحجرية، شكل هلال متقن الصنع، وبجانبه بعض علامات الوسم المنقوشة، وفي الموضع الحجري فوقها كتابة كوفية، الكتابة العربية القديمة، بالشكل الذي يوجد بالضبط على العملات النقدية العباسية.[2]
وكتب يقول: «حين تفقدت منزل الشيخ (شيخ إثره) عن قرب شاهدت فوق باب المدخل المؤدي إلى الفناء على القطعة الحجرية العليا رسماً بديعاً لهلال، وبجانبه بعض الرسوم (رموز قبائل البدو) محفورة على الحجر، وفوقها كتابة بالخط الكوفي تحمل العبارة نفسها المنقوشة على العملات التي كان العباسيون يستخدمونها، وهي (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له. محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على

(1) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 144، 145.
(2) عوض البادي: الرحالة الأوروبيون، ص 181.

الدين كله ولو كره المشركون) وبجانب إحدى نوافذ الجدار الشرقي للقصر هناك رسم غائر لرأس إنسان مُحاط بإفريز جميل».[1]

يُلاحظ أويتنج اهتمام رفيقه شارل هوبر بالخط الكوفي، فيذكر أنه عثر في قصر الأزرق، إحدى القلاع التاريخية في الأردن، على نقش عربي مكتوب بالخط الكوفي[2]. ويُسجل ذلك يقول: «وروى هوبر بأنه لاحظ في قصر الأرزق نقوشاً بخط كوفي رديء».[3] ويعثر أويتنج في تيماء على كتابات غير واضحة بالخط الكوفي، فيقول: «قمنا بعد العصر بجولة في الشعيب خارج المدينة، حيث وجدنا بعض النقوش المكتوبة بخط كوفي غير واضح».[4] ثم يعثر على نقوش أخرى، فيقول: «اجتزنا بطن الشعيب ووصلنا إلى سور المدينة (تيماء) القديم والممتد من شرق المدينة إلى شمالها، وخلفه يقع المنخفض المحاط بحبل كشكل القوس، الذي يُسمى غار الحمام، الذي وجدنا في شعابه عدداً من النقوش الثمودية وأخرى مكتوبة بخط عربي كوفي، ولكنني بسبب قوة الرياح لم أتمكن من عمل بصمات ورقية لها بل اكتفيت بنسخها فقط».[5] وعرض عليه إيراني مشهدي، نسبة إلى بلدة مشهد الإيرانية، أن يبيع له حجراً يحمل نصوصاً مكتوبة بالخط الكوفي، فقرر أويتنج الذهاب للاطلاع عليه، فيقول: «توجهنا... لكي نُشاهد الحجر الذي تحدث عنه المشهدي (سلطان الإيراني) وطلب مقابله مائة مجيدي، وهو حجر طوله متر ونصف، وعليه كتابات كوفية غير واضحة».[6] ولعلها إشارة إلى حجر تيماء الذي ادعى هوبر أنه هو من اكتشفه.

(1) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 27.
(2) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 62.
(3) عوض البادي: الرحالة الأوروبيون، ص 232.
(4) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 159.
(5) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 187، 188.
(6) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 191.

ماكس أوبنهايم

يولد القانوني والدبلوماسي والسياسي والمستشرق والآثاري والمخطط الإنمائي والاستخباراتي، البارون ماكس فرايهر فون أوبنهايم Max Freiherr Von Oppenhiem Baron (1860 – 1946) في 15 يوليو 1860 في مدينة كولونيا بألمانيا من عائلة مصرفية تمتلك بنك أوبنهايم، الذي أسسه جده الأكبر في القرن الثامن عشر. وهو الابن الثاني لألبريت وببولا أوبنهايم. درس القانون في جامعة ستارسبرج Stasbourg عام 1879، ثم التحق بجامعة برلين بين عامي 1881–1883، حيث نجح في امتحان الدولة في فبراير 1883، وفي للشهر التالي حصل على الدكتوراه في القانون من جامعة جوتنج Gottin-gen، وله من العمر 23 عاماً. ولهذا يُعدّ واحداً من الشخصيات الفريدة، التي تملك اهتماماً كبيراً وتنوعاً هائلاً في مواضيع الحياة المختلفة.[1]

يعود اهتمام أوبنهايم بالشرق إلى سنوات المراهقة، إذ أُهديّ له كتاب (ألف ليلة وليلة)[2]، ثم نضج وتطور هذا الشغف، وظل ملازماً له، وموازياً لدراسته

(1) ماكس أوبنهايم: رحلة إلى مسقط عبر الخليج، محمود كبيبو (ترجمة) (بيروت: دار الوراق للنشر والتوزيع، 2009).

(2) ترك كتاب (ألف ليلة وليلة)، الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية كأول لغة أوروبية يترجم لها على يدي الفرنسي أنطوان جالان (1704–1717)، ثم ترجمه ريتشارد بيرتون إلى الإنجليزية بين أعوام (1839–1841)، تأثيره على شغف الكثير من الرحالة الغربيين بالمشرق العربي، منهم الفرنسي موريس هونوريه، البريطانية جيرتروود بيل، البريطاني ريتشارد بيرتون، البريطانية الليدي آن بلنت، الأمريكي ويليام سيبروك، الفرنسي سوانسن كوبر، الأسباني أدولفو ريفادينيرا، الفرنسي فونتانييه. راجع علي عفيفي علي غازي: رؤية الرحالة لقيم وعادات عشائر العراق 1800–1958، رسالة دكتوراه غير منشورة (دمنهور: كلية الآداب جامعة دمنهور، 2014)، ص 45، 46؛ وليد كاصد الزيدي: بغداد في مذكرات رحالة فرنسيين مطلع القرن العشرين، (أبو ظبي: نادي تراث، الإمارات، 2013)، ص 94؛ بيتر برنيث: بلاد العرب القاصية، رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب، خالد أسعد عيسى؛ أحمد غسان سبانو (ترجمة)، (بيروت: دار قتيبة للنشر والتوزيع، 1990)، ص 312؛ أسعد عيد الفارس: (الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية أهدافهم وغاياتهم)، في كتاب دارة الملك عبدالعزيز: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية الجزء الأول، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 2000)، ص 590؛ الليدي آن بلنت: قبائل بدو الفرات عام 1878، أسعد الفارس؛ نضال خضر معيوف (ترجمة)، (دمشق: دار الملاح

للقانون، ودفعه ذلك لدراسة اللغة العربية تحت إشراف مدرسين خاصين، ثم يقوم في عام (1883–1884) بأول رحلة استكشافية في الشرق، وبرحلة أخرى إلى المغرب العربي بعدها بعامين (1886). ولما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره قام في صيف عام 1893 برحلة (من البحر المتوسط إلى الخليج العربي Van Mittelmeer Zum Persischen Golf)، أثارت شكوك المسؤولين البريطانيين في المنطقة، فسجلوا تحركاته وتفاصيل تنقلاته، وقد زار القنصل البريطاني في بغداد موكلر Mockler والمعتمد في مسقط سيرجيون ياياكار Surgeon Yayakar، حيث استقبل كما يُعامل أي رحالة أوروبي.[1]

يقوم في عام 1895 برحلة إلى أسطنبول سهلت له الحصول على معلومات قيّمة لبحوثه واكتشافاته الأثرية في المنطقة. ثم عمل مستشاراً للقنصل الألماني العام في القاهرة (1896–1909)، حيث كتب إلى برلين أكثر من 500 تقرير ومذكرة، وفي غضون ثلاثة عشر عاماً ملأت تقاريره اثني عشر مجلداً، وتراوحت الموضوعات التي كتب عنها ما بين الاقتصاد والتاريخ والحركات الدينية والسياسية، كما رسم مُشجرات أنساب العائلات الحاكمة، وقدم وصفاً مُسهباً لتفاصيل الحياة القبلية والظواهر الجغرافية. وفي القاهرة بنى علاقات واسعة مع القادة العرب والأتراك، ولهذا كان

للطباعة والنشر، 1991)، ص 163؛ ويليام ب. سيبروك: مغامرات في بلاد العرب، عارف حديفة ونبيل حاتم (ترجمة)، (دمشق: دار المدى للنشر والتوزيع، 2006)، ص 303؛ سوانسن كوبر: رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك من البحر المتوسط إلى بومبي عن طريق مصر والشام والعراق والخليج العربي في 1893م، صادق عبد الركابي (ترجمة)، (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2004)، ص 179؛ أدولفو ريفادينيرا: من سيلان إلى دمشق، صالح علماني (ترجمة)، (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2009)، ص 143؛ قيس جواد العزاوي: (النجف كما وصفها بعض المستشرقين الفرنسيين)، جريدة الجريدة، (13 أبريل 2006)؛ Lady Anne Blunt: Bedouin Tribes of the Euphrates، (New York: Harpers & Brothers Publisher، 1879)، p. 142.

(1) جاسم محمد جرجيس: (البدو)، مجلة ليوا، العدد 13، (يناير 2005)، ص 116–122.

موضـع شك وريبة من السـلطات البريطانية.[1] وفي عام 1899 اكتشف آثار تل حلف في سـورية، وفي عام 1902 أصـبح مسـؤولاً عن مشروع سكة حديد برلـين- بغـداد، التي مولهـا البنك الألمـاني. وفي عام 1905 مثـل ألمانيا في مؤتمر الاستشـراق الرابع عشـر، الذي عقد في الجزائر، واسـتغل الفرصة فتجول في ربوع الجزائر وتونس. وأرسـل في عام 1908 مندوباً عن ألمانيا في مؤتمر الاستشراق الخامس عشر، الذي عقد في كوبنهاجن.

يُقدم أوبنهايم، في عام 1909، اسـتقالته من عمله الوظيفي بشكل طوعي، إلا أن وزارة الخارجية الألمانية استدعته مرة أخرى في عام 1914، إذ تولى إدارة دائرة المخابرات الشـرقية، والتي كانت مسـؤولة عن الدعاية ضـد بريطانيا وفرنسـا، وتأليب الشـارع العربي الإسلامي ضـدهما. وفي عام 1915 أصبح ملحقـاً في السـفارة الألمانية في أسـطنبول، ليعـود في عام 1917 إلـى ألمانيا، ويلتحق بالعمل الأكاديمي، بعد الحرب العالمية الأولى، ويؤسـس في عام 1922 مركز دراسـات الاستشـراق في برلين، كمؤسسـة دراسـية حوارية. ويقوم في عام 1925 برحلة إلى أسـطنبول وأنقرة؛ ليقدم المشـورة بخصـوص الحدود بين سـورية وتركيا. وفي عام 1929 قام بحملة استكشـافية ثانية في تل حلف. وفي العـام التـالي افتتح متحف تـل حلف في برلـين مدعوماً من قبـل عائلته وأصـدقائه. وفي عام 1939 قام بآخر رحلة إلي سورية، حيث رحلته السلطات الفرنسـية قسـراً إلى ألمانيا. وتعرض بيته ومكتبه ومقتنياته الشرقية وآثار تل حلف في المتحف في عام 1943 للضرب بالقنابل؛ فرحل إلى درسدن. وفي عام 1945 بعد الحملة الجوية العنيفة على درسدن انتقل إلى بافاريا. وتوفي في 15 نوفمبر 1946 في (لانشت)، وفيها ووري جثمانه الثرى.[2]

---

(1) فراوكة هيردبي: (التحديات الواقعة والمتخيلة لوضـع بريطانيا في الخليج)، في كتاب عبيد علي بن بطي (محرر): كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور، (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1996)، ص 256، 266.

(2) ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسـط إلى الخليج: لبنان وسـوريا، محمود كبيبو (ترجمة)، (لندن:

كتاب البدو

ينظر المؤرخون والباحثون إلى كتاب أوبنهايم الموسوم (البدو Die Beduinon)، باعتباره النتيجة الأهم لرحلاته العديدة في الخليج والجزيرة العربية، والذي نشره في أربعة مجلدات، طبع الأول والثاني منها في حياة المؤلف في لايبزج عام 1939، وساعده بروينلش. ثم أنجز البروفيسور كاسكل من جامعة كولون المجلدين: الثالث والرابع، بعدما نقحهما وأضاف إليهما، حيث استغرقا عشرين سنة أخرى لكي يُبصرا النور. يُعالج أوبنهايم فيها خصائص المجتمع البدوي في الجزيرة العربية، وأسلوب الحياة الرعوية، من النواحي التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأنثربولوجية، وكذلك وصفاً للطبيعة الجغرافية، ثم يتناول تاريخ القبائل العربية، وأصولها وأنسابها، وترابطها، ومناطق تجوالها، وانتشارها، وديار كل قبيلة منها، واتجاه هجرتها. ووضع مخططات دقيقة لأنساب القبائل، وعلاقاتها السياسية والقرابية، والصراعات فيما بينها. ولهذا يُعتبر كتاب (البدو) بمثابة دائرة معارف عن البدو، قبائل، وتواريخ، حضارة، وحياة.[1] وقد كرس أوبنهايم نفسه بهذا الكتاب بوصفه مستشرقاً في ألمانيا، وفي صفوة الباحثين الأوروبيين.

يذكر أوبنهايم في مقدمة الجزء الأول من كتاب (البدو) : «سيُقدم كتابنا هذا معطيات إلى كل من يبحث عن معلومات حول سائر المسائل المتعلقة بأبناء الصحراء... إن هذا الكتاب حصيلة أربعين عاماً من العمل والملاحظات

دار الوراق للنشر، 2008)، ص 7–10.

(1) عمار السنجري: البدو بعيون غربية، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2008)، ص 63، 64؛ إبراهيم الحيدري: صورة الشرق في عيون الغرب، (بيروت: شركة دار الساقي، 1996)، ص 59، 69، 70.

والتســجيلات الشخصــية التي قمت بها في عين المكان».[1] ويقول عن هدف رحلتــه: «إن مذكراتــي لم تكن مجرد وصــف للرحلة وإنما حرصــت أيضــاً علــى الحديث عن البلاد والناس، عن تطورهــم التاريخي، وعن انتماءاتهم العرقيــة والدينية. وفي أثناء ذلك رأيت من واجبي أن أتطرق بين حين وآخر إلى المصــادر الكثيرة، التي تُعالج تاريخ وجغرافية ســورية وبلاد الرافدين، والتي تشــمل، إلــى جانب المراجــع الكلاســيكية لمؤلفين إغريقيــين ورومان وعــرب، وكذلك مؤلفات مؤرخين عرب حديثــين، العديد من كتب الرحلات الأوروبيــة القديمة وعــدداً كبيراً من المقالات العلمية الجديدة المنتشــرة في مجلات كثيرة من الصعب الوصول إلى بعضها».[2]

الخط النبطي

يُميز أوبنهايم الخط النبطي في قرية (الضمير)، التي يذكر أنها «آخر قرية في الشمال عثر فيها على كتابات نبطية. إحدى هذه الكتابات، تعود إلى عام 99 بعد الميلاد، اكتشفها البروفسور موريتس على عمود ثماني الأضلاع، عند وجودي هنا كان هذا العمود مرمياً على الأرض في أحد شوارع الضمير».[3]

الخط العربي

يســتهل أوبنهــايم رحلته إلى الخليــج العربي عبر بلاد ما بــين النهرين من دمشــق، حاضرة الخلافة الأموية، فيُشير إلى اهتمام أهلها بالخط العربي، فيذكــر أنــه «في الآونــة الأخــيرة أصــبحت موضــة أن يُســتعاض في البيوت القديمة عن تزيين أجزاء من الجدران بالزخرفة العربية والآيات القرآنية،

(1) ماكس فرايهير فون أوبنهايم: البدو، الجزء الأول: ما بين النهرين (العراق الشــمالي) وســورية، مشــيل كيلو ومحمود كبيبو (ترجمة)، (لندن: شركة دار الوراق للنشر، 2007)، ص 1–3.

(2) ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج، ص 11.

(3) ماكس فون أوبنهايم: مرجع سابق، ص 271.

برسومات كبيرة تظهر فيها مناظر طبيعية أو مبان أو ما شابه».[1]

يلحـظ أوبنهايم وجود العديد من النقوش والكتابات بالخط العربي في قرية (بُصـرى)، فيذكر أنه عثر فيها على (الكثير من الكتابات العربية القديمة بالخط النسـخي في بصـرى، ومنها مثلاً، كتابة على حجـر فوق باب جامع صـغير يقع قرب بركة موجودة خارج حقـل الآثار الرئيس، تفيد بأن الجامع قـد بنـي في عام 655هـ (1257م) وفيما يلي نصـها: «لا إلـه إلا اللّه، اللّه وحـده، محمد رسـول اللّه، بسـم اللّه الرحمـن الرحيـم، اللّه رب العالمين. بني هذا المسـجد المبارك سـنة خمس وخمسون وستماية، رحم اللّه من دعا لروحه بالرحمة».[2] ويعثر أوبنهايم على كتابات بالخط العربي في بُصـرى، على مسجد آخر يُطلق عليه الأهالي اسم (مسجد عمر بن الخطاب)، ولكن يلفت انتباهه (بشكل خاص بقايا إفريز حول أحد الحيطان مزخرف بكتابة بالخـط الكوفي من الجبس. وعلـى الجدار الخارجي للجامـع، عند المدخل الرئيسـي، مقابـل بقايا غرفة أماميـة، توجد عدة كتابات ذكـر في إحداها الاسم عبدالرحمن المصري).[3]

يواصـل أوبنهايم تقديم وصـف للوحـات مكتوبة بالخط العربـي عثر عليها واكتشـفها وميـز خطها عن سـائر الخطوط الأخرى التـي يملك الكثير من الخبرة فيها، فيذكر أن الجزء العلوي من قلعة بصرى، أو ما يُمكن أن نسميه المنصـة الأرضـية عبارة عن مسـرح ضخم على شكل نصـف دائرة لم تزل تزينه بعض الأعمدة الجميلة. وعند المدخل اليميني إلى خشـبة المسرح بنى الأيوبيون مخزناً كبيراً للأسلحة كتبت على مدخله القوسي العبارات التالية:

(1) المرجع السابق، ص 76.
(2) ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج، ص 221.
(3) ماكس فون أوبنهايم: مرجع سابق، ص 221.

«أمر بعمارة هذه الزردخانة المباركة مولانا السلطان الملك الصالح العادل عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب رحمه الله ابن الأمير بدر الدين داود بركيز اللاه الصالحي في شهور سنة تسع وعشرين وستماية». وحسب هذه الكتابة قام بتشييد هذا المبنى سلطان دمشق الأيوبي الصالح إسماعيل ابن العادل في عام 629هـ (1231/1232م). ويعتقد بأن هـذه الكتابة ومعظم الكتابات العربية الأخرى الموجـودة في القلعة تعود إلى العهد الأيوبي، وبالتحديد إلى القرن الثالث عشر الميلادي.[1]

ينتقـل أوبنهايم في رحلته إلى قرية صـلخد، وهي قرية شـرقي سـورية، بها الكثـير مـن الآثار الإسـلامية التي تعـود للعصـر الأيوبي، فيقـول إنه وجد (في قلعة صـلخد كمية كبيرة مـن الكتابات العربية بالخط النسـخي، أورد منها تلك المتعلقة بإصـلاح البرج واسـتكمال بنائه: أمر بتجديد هذا البرج المبـارك الأمير فخر الدين الملكي في أيام الملـك العادل أندكير أيوب (الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب 592-615هـ/ 1196-1218م). وكتب علـى أحد الأبواب: أمر بعمارة هـذا البرج المبارك الأمير ابن رواحا في أيام الملك العادل سـيف الدين أبو بكر ابن أيوب سـنة إحدى وستماية (601هـ/ 1204م). وكتب على الجهة الخارجية الجنوبية للسـور: بسم الله الرحمن، أمـر بعمارة هـذه القلعة المباركـة مولانا السـلطان العالم العامـل المجاهد المظفر المنصـور الملك الصالح فخر الدنيا والدين أيوب ابن حمدان بن أبي بكر بن أيوب خليفة أمير المؤمنين بتاريخ سـتة من جمادى الأولى سـنة سبع وأربعـين وسـتماية بولاية العبد الفقير إلى الله تعالـى علي ابن الإمام أحمد ابن صـالح النجباني الصـالحي). ويذكر أن (هذه الكتابة منحوتة بشـكل جميل في حجارة السـور المربعة في مكان غير بعيد من جسر مهدم الآن يمر

(1) المرجع السابق، ص 222.

فــوق حفرة البرج. ومن المحتمل أن تكون هناك كتابات أخرى مطمورة تحت الركام المحيط بالســور). ثم يُشير إلى أنه (من المؤكد أن المدينة (صلخد) أيضــاً شهدت بعض التطورات العمرانية كما تشهد على ذلك مئذنة الجامع الكبير الواقع في وســط المدينة التي بناها المملوكي السلطان عز الدين أيبك في عــام 603هــ/ 1225م والتي كتب عليهــا: (بســم الله الرحمن الرحيم، بإذن الله أمر برفع الفقير عز الدين أيبك ولد الملك المعظم عيســى بن أبي بكر أيوب في ســنة ثلاث وســتمئة أجره وأثابه الله بولاية مملوكه منصور). كانت الكتابة مســجلة بالخط النســخي على شــريط رخامي يلتف حول برج المئذنة الثماني الأضــلاع ومثبت على ارتفاع شاهق بحيث لم يكن من الممكن قراءتها إلا بصعوبة وبواسطة منظار مقرب).[1]

الخط الكوفي

يتميز الخط الكوفي باســتقامة زواياه، ولهذا من الســهولة تمييزه عن سائر أنــواع الخطوط العربية، ولهذا يتعرف عليــه كل الرحالة المهتمون بالكتابات والنقوشــ العربيــة، ومنهم أوبنهــايم، الذي أكد عثوره علــى كتابات بالخط الكــوفي في جبــل الدروز، على (بناء واســع مزيــن بأعمدة وأقواس، يُســمى القصــر)، فيذكر أنه «يوجد على جــداره الخارجي بالقرب من الباب كتابة كبيرة بالخط الإغريقي، وكتابة عربية قصــيرة بالخط الكوفي» ويشــير إلى أن الكتابة الإغريقية تتألف من 5،13 سطراً... أما الكتابة العربية فقراءتها صــعبة، ويبــدو أن العلامات تنصــ على ما يلــي: «أمر بهذا المســجد الملك العالم، وتحتها يوجد عدد من الأســطر بخط ناعم جداً».[2] ثم يشير إلى أنه رأى على حجر بالقرب من جســر قريــة جمرين «كتابة عربية كبيرة بالخط

(1) ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج، ص 226، 227.

(2) ماكس فون أوبنهايم: مرجع سابق، ص 207، 208.

الكوفي. كان الحجر ملقياً على الأرض بالقرب من البرج المذكور سابقاً، وهو مأخوذ، حسب أقوال السكان، من الجسر الذي كما يبدو للعيان قد تم تجديده في العصر العربي».[1]

يعود أوبنهايم لتاريخ ما قبل الميلاد، فيذكر أن الرومان كانت لهم محطة رئيسة في «جبل سيس كانت مهمتها مراقبة بدو الحرة وحماية سورية من الهجمات القادمة من الشرق» وأنه عثر فيها على نقوش «لاتينية أو إغريقية لم يعثر عليها أحد، لا فوغييه أو وادينغتون ولا شتوبل... أما الكتابات الكوفية القليلة التي عثر عليها فوغييه فتعود إلى العهد الإسلامي».[2]

يجتاز أوبنهايم وادي الكبير، ليصل إلى قصر الحير، الذي يرى أنه «يعود في الأصل إلى العصر الروماني القديم، وكان على الأرجح قلعة صغيرة، قد تم تجديده في عهد الخلافة العربية» ولهذا عثر فيه على «كتابة بالخط الكوفي تتحدث عن أن الخليفة الأموي عبدالله هشام (بن عبدالملك) قد بنى قصر الحير من جديد. غير أن هذا المبنى العربي لم يتبق منه أي شيء، إذ إن الآثار الباقية تعود دون أدنى شك إلى العهد الروماني التدمري، ومما يلفت الانتباه بشكل خاص الجدران العالية لبرج سابق مربع الشكل، والجسر الحجري لبوابة ضخمة المزين بزخارف في غاية الجمال».[3]

ينتقل أوبنهايم إلى تدمر، فيلاحظ انتشار كتابات بالخط الكوفي على جدران مسجد تدمر، فيذكر أنه عثر «هنا على سورة القرآن بالخط الكوفي». ورأى «سقوفاً رائعة الجمال، وزخارف جدارية جميلة استعملت في تشكيلها رموز الأبراج السماوية (أبراج الحظ) وأشكال هندسية مختلفة تذكرنا

(1) المرجع السابق، ص 218، 219.
(2) نفسه، ص 264، 265.
(3) نفسه، ص 290، 291.

بموضــوعات شرقية، وهناك أيضاً تزيينات بأوراق النباتات وأكاليل الزهور الأنيقة التي يمكن أن تكون قد نشأت في عصر لويس السادس عشر، وتيجان وزخارف ناتئة وديكورات من مختلف الأنواع يعبر تباينها الشديد عن أشكال من الفن الكلاسيكي القديم، ونماذج من أسلوب العصر الإمبريالي».[1]

(1) نفسه، ص 328، 329.

جيرتروود بيل

تُعـرف الرحالة البريطانية جيرتروود مارجريـت لوثيان بيل Gertrude Bell (1868 – 1926)، بأنها (شـاعرة، مؤرخـة، عالمة آثار، ناقدة فنية، متسـلقة جبال، مستكشـفة، بستانية، أستاذة تاريخ طبيعي، خادمة مميزة للدولة).[1] فهـي أول امـرأة في التاريخ الحديث تُسـجل مدوناتها السياسـية والتاريخية في رسـائل، نشـرت في مجلدين يتناول الأول منهما الفـترة (1889–1914) والثـاني الفـترة (1914–1926). وتُعـدّ المسـ بيـل مـن أهم الشخصـيات البريطانية التي أسـهمت في صـنع الخريطة السياسـية والجغرافية للمنطقة العربية عامة، والعراق خاصـة، في القرن العشرين، ودورها بالغ الأهمية، إن لم يكن حاسـماً، في الصـيغة التي أخذتها المنطقة في أعقاب الحرب العالمية الأولى (1914–1918). ولدت جيرتروود بيل بواشـنطن عام 1868 في عائلة أرستقراطية، وعندما كانت صغيرة جداً انتقلت عائلتها إلى (ريد كار)، وتلقت تعليمهـا الأولى في المنزل، وبعدها انتظمت بالدراسـة في مدرسـة بالعاصـمة البريطانية، وبعد إكمالها تحصـيلها المدرسي، تلتحق في عام 1886، وهي في ربيعها العشرين، بجامعة أكسفورد لدراسة التاريخ، وفي الثانية والعشرين من عمرها تنهي دراسـتها الجامعية، وتحصل على أعلى الدرجات في دورتها، ثم تمارس العمل الاجتماعي لمدة سنتين في مدينتي لندن ويورك.

تذهـب المسـ بيـل، أو الخاتون كمـا كان يُطلق عليهـا العراقيـون، في رحلة استكشـافية طويلـة إلـى أوروبـا بـين عامـي (1897–1899)، حيث كانت شـغوفة بتسـلق الجبال، وتنال الإعجاب عندما تتسلق جبال الألب، إذ هبت رياح شـديدة فبقيت على الحبل لمدة 53 سـاعة. تعلمت المس بيل الفارسية،

(1) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل 1899–1914، رزق الله بطرس (ترجمة)، (بيروت: دار الوراق للنشر المحدودة، 2008)، ص 20.

وزارت إيران في عام 1892، ونشرت رحلتها إلى إيران في كتاب تحت عنوان (صـور فارسية)، كما قامت بترجمة أشعار حافظ الشيرازي. بدأ اهتمامها بالعرب والحياة العربية نهاية القرن التاسـع عشـر بداية القرن العشـرين، حيث قامت برحلة في شـتاء عـام (1899–1900)؛ لزيـارة القدس، وتعلّم اللغة العربية، والقيام ببعض الاستكشافات الأثرية؛ لتستحق بجدارة نتيجة للـك أن تُمنح الميدالية الذهبية من الجمعيـة الجغرافية الملكية The Royal Geographic Society. وكانـت المس بيل تجـوب المنطقة بحجة البحث عـن الآثـار مرة، وبحجة دراسـة لهجات البـدو مرة أخـرى، وبحجة الإلمام بأصـول القبائل وأنسابها ثالثة، إلى أن وصـلت إلى أعماق الجزيرة العربية في محاولة لاسـتمالة عدد من شـيوخ البدو إلى جانب الحكومة البريطانية، وتعبئـة عواطف العرب ضـد العثمانيين، الأمر الـذي أدى إلى احتجازها في حائل من قبل ابن رشيد الذي كان موالياً للعثمانيين إلى أن تم الافراج عنها وترحيلها من الجزيرة العربية، ورغم ذلك لم تهدأ، ولم تتوقف عن المغامرة والتجـوال في بلدان المنطقة، مما سـاعدها أكثر على إتقـان اللغة العربية، إضافة إلى الإلمام بتفاصيل المنطقة ومشاكلها.

تنتـدب الحكومة البريطانية المس بيل للعمل في العراق أثناء الحرب العالمية الأولـى، وفي نهاية عام 1914 تصـل إلـى العراق، وبعد سـقوط بغداد تُعين السكرتيرة الشرقية للحاكم السير بيرسي كوكس Sir Percy Cox، أحد أبرز صانعي السياسـة البريطانية في الجزيرة العربية والشام. ماتت جيرتروود بيـل، ولم تبلـغ الرابعـة والخمسـين عاماً، ودفنـت في بغداد، بعـد أن ووري جثمانها الثرى في عصـر يوم 2 يوليو 1926 في المقبرة العسكرية البريطانية في بغداد، والمعروفة حتى وقت قريب باسم (مقبرة الإنجليز). وقف المندوب السـامي البريطاني السير هنري دوبس يرثي المس بيل، وقال في ختام كلمته

التأبينيـة: «إن عظامهـا ترقـد حيث أرادت لهـا أن ترقد في تربـة العراق». وهكـذا رحلت الخاتون بعدما تحقق جزء كبير من أحلامها الكثيرة، وتركت بصـماتها الواضحة على عمليتي تشـكيل الحكم الوطني، والانطلاق بحكم العراق. وعلى حد تعبير السير نايجل دايفدسون Sir Nigel Davidson فإن العالم لم يشـهد أبداً من كان باستطاعته منافسة جيرتروود بيل في مضمار معرفة التفاصـيل المتعلقة بالقبائل العربية ورؤسـائها وأسرهم، إذ لم يحظ أحد بما حظيت به من فرص، تم لها بفضـلها الحصول على المعلومات التي قدر لها جمعها من خلال رحلاتها وأسفارها. ولو كتب لها العيش فترة أطول لتمكنت من أن تحصـل على رتبـة مفوض Commissioner مدى الحياة، ولقـدر لها أن تحيـا بعد الحرب حياة كريمـة كتلك التي شـاءت الأقدار أن تحياها كل من الليدي إيستر ستانهوب Lady Hester Stanhope، والليدي إيلينبـورو Lady Ellenborough، بوصـفهما من ذوات المكانـة الرفيعة.[1] وأخيراً تركت المس بيل رسائل يبلغ عددها 1600 رسالة، وكذلك يوميات بلغ عددها 16 مجلداً وملاحظات خاصة بلغ عددها 40 كتيباً صغيراً، بالإضافة إلى 7000 صورة.[2]

الخط العربي

تقوم جيرتروود بيل خلال السنوات التي قضتها في العراق (1914–1926) بجـولات في كافة ربوع البلاد شـمالاً وجنوباً، وطافت ببواديه ونزلت ضـيفة علـى مشـايخ عشـائره، وزارت قراه ومدنه ووصـفتها، وكتبت عـن عاداتها وتقاليدهـا وقيمهـا بإسـهاب، ولمـا كانت لماحة قويـة الملاحظـة، فقد لفت

(1) إليزابيث بيرغوين: جيرتروود بيل من أوراقها الشخصية 1914–1926، نمير عباس مظفر (ترجمة)، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002)، ص 10–12، 23–25، 31–33، 105–106.

(2) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل، ص 8–11.

انتباههــا أية نقوش بخطــوط عربية أو غير عربية، فنراها تشــير في إحدى رســائلها إلى انتشار الخط العربي في مدينة بُصــرى، فتقول: «كانت هناك كتابات في كل مكان باللاتينية واليونانية والكوفية والعربية منقوشــة، دخلت في بنــاء جدران بيــوت الفلاحين على نحــو مقلوب، بالإضــافة إلى بلاطات مثقوبة كانت في السابق نوافذ، وقطع من أعمدة أو تيجان لأعمدة».[1]

تواصــل المســ بيل رصــد النقوش والكتابــات بالخط العربــي، في دليل على اهتمامهــا بــه، وتمييزهــا لــه، ومعرفتهــا بقواعــده، فتذكر في رســالة أنها اســتطاعت أن تميز الخط العربي في (قرة داغ) بآسيا الصغرى، إذ تصف قرية (مادن شــهر) بأنها «تتألف من 15 عائلة تركية بنوا لأنفســهم أكواخاً مــن الأنقاض، لكن هناك عــادة تركية هي أن كل قرية مهما كانت صــغيرة يجب أن تحتوي غرفة ضــيوف للمســافرين فذهبنــا لنتحقق. نعم طبعاً قال شــيخ القرية هناك (أوضــة (غرفة)) في بيته، وإنني على الرحب والســعة فيهــا. حالما رأيتهــا علمت أن أعــز أحلامي قد تحقق. كانت غرفة صــغيرة مبنيــة مــن الطين فارغة، واســم الله منقوش في مكان عــال على الجدران، وأمام الباب كان هناك منبسط يشرف على السهل الكبير، وعلى منحدرات قــرة داغ. الجميع يعتبرونني أمراً طبيعياً، ســوى الــكلاب التي لا تزال تنبح بهياج كلما مررت. وكذلك بيتي جميل بجدرانه من الطين، واسم الله مكتوب عليها: الله– الله، وخدمي رائعون».[2]

تعــثر المســ بيل في قرية (أم الرمــان) على العديد من النقوشــ والكتابات، والتــي كان مــن بينها ما هو مكتــوب بالخط العربي، والخــط الكوفي، حيث اســتطاعت تمييز الخط الكوفي، ذلك الخط الذي يتميز باســتقامة حروفه

(1) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل، ص 77.

(2) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل، ص 204، 205.

وكتاباتـه، فتقول: «بدأت يومـي بطريقة هادئة جداً أنسـخ بعض الكتابات، وكنـت محظوظة أننـي وجدت بعضـ الكتابـات اليونانية، وواحـدة كوفية، وواحدة نبطية، ولا يعلم اللّه ماذا تعني، لكنني نسـختها بأمانة، وسـيقرؤها المثقفـون... وفي مكان آخـر كانت هناك كتلة من الصـخور مغطاة بنقوش: نبطيـة، يونانية، وكوفية، وواحدة في تشـوش، لا أعرفها، لكنها كانت تشـبه إلى حد كبير أقدم مخطوطة من سبأ باليمن. وأخيراً كتب الأعراب علامات قبائلهـم هناك بطريقة سـريعة غير مقروءة. هكذا سـجل كل منهم مروره بطريقة خاصة به».(1)

الخط الكوفي

يُعد الخط الكوفي من أقدم الخطوط العربية، وأقربها إلى الشكل الهندسي، اشـتق من الخـط النبطي (خط أنبـاط العراق) المتأخـر، المعروف بالخط الحيري أو الأنباري، وسُـمي بالخـط الكوفي تيمناً بمدينة الكوفة، واشـتهر في البداية بالخط اليابس، بسـبب قيام بنائه على خطوط مستقيمة، وزوايا حادة، لاسـتقامة حروفه؛ التي تحتاج كتابتها إلى الأدوات الهندسية، ولهذا استطاعت المس بيل أن تميز الخط الكوفي بسهولة ويسر، فتذكر أنها شاهدت كتابات كوفية على حصـن برج برقة الرئيسـ، فتقول: «ثبت أن برقة ممتعة حقاً، هنـاك كتابة كوفية جيدة فككت رموزها، يعـود تاريخها إلى العام 81 هجريـة، ولما كانت كتابات القرن الأول الهجري نـادرة جداً فهي مهمة على نحو استثنائي».(2)

تسـتمتع بيل برحلتها إلى جبل طبيق، وتشـعر بالسـعادة عنـد عثورها على نقوش وكتابات بالخط الكوفي، فتقول: «في المقام الأول كانت الآثار تسـتحق

(1) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل، ص 156، 166.
(2) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل، ص 297.

أن أراهـا. فيهـا رمـوز كوفية وكلهـا كاملة، ولكي أصـل إليهـا ركبت خمس سـاعات عبر جبل طبيق، رأيت وصـورت المكان العالي، قبل الإسـلام (كما ظننته) وأخذت فكرة أفضـل بكثير عن هذه التلال الممتعة جداً. فهي مليئة بالجمال المتوحش والأساطير، تستحق دراسة طيلة شهر كامل».[1]

(1) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل، ص 320، 321.

الليدي درور

تُعدّ الليدي درور، أو أثل ستيفانا ستيفنس Ethel Stefana Stevens، أول رحالة ومستشرقة بريطانية، تهتم بتاريخ الأديان في العراق، فكتبت عن اليزيدية Peacock Angel، واتصلت بهم بصورة مباشرة، وعايشتهم عن قرب في أماكن تواجدهم مدة تزيد عن الأربعين عاماً، قضتها في دراسة ومشاهدة وممارسة طقوسهم الدينية لإتقانها وتسجيلها تسجيلاً دقيقاً. ويُعتبر كتابها عن الصابئة المندائيين The Mandaeans المرجع الأجنبي الرئيس عنهم، ولغتهم، التي هي إحدى اللغات الآرامية الشرقية. وقد استمر بحثها عنهم مدة ربع قرن تقريباً بعد انتهائها من كتابها المطبوع في عام 1937، ونتج عن تتبعها ودراستها لدينهم ولغتهم أن قامت بالتعاون مع الدكتور رودولف ماتسوخ بتأليف قاموس مندائي إنجليزي موسوم (قاموس اللغة المندائية)، طبع في عام 1963 في أكسفورد، ويعتبر المرجع الوحيد في لغة الصابئين في الوقت الحاضر. كما قدمت مؤلفاً في ببلوغرافيا المخطوطات المندائية، وإليها يعود الفضل في أكثر الدراسات التي ظهرت في بريطانيا في بداية القرن العشرين حول الصابئة المندائيين.

تُولد الليدي درور في الأول من ديسمبر 1879 بلندن، وتقضي طفولتها المبكرة في نيو فوريست New Forest، حيث كان والدها يعمل قسيساً في كنيسة بيرلي Burley. ثم تعلّمت لغة الغجر في شبابها، وعندما انتقلت عائلتها إلى ساوث هامبتون بعد أن عُين والدها رئيساً لأبرشية المدينة، قامت بوضع قاموس عن لغة الغجر مستعينة بكتاب خاص عن قواعد اللغة السنسكريتية. وعلى الرغم من أن هذا القاموس لم ينشر في حينه الا أنه يقوم دليلاً على اهتماماتها اللغوية التي تخصصت فيها لاحقاً. كانت أثل متفوقة في دروسها

إلا أنها لم تلتحق بالجامعة لظروف أهلها المادية، وسافرت إلى ألمانيا لدراسة الموسيقى والعزف على آلة الكمان، ولكن سرعان ما تملكها الملل فعادت إلى بريطانيا بعدما شعرت أن لديها الرغبة في الكتابة. والتحقت بمدرسة خاصة بالصحافة في لندن أتاحت لها تدريباً ممتازاً في مجال مراجعة ونقد الكتب المعدة للنشر، وكذلك إعداد التقارير وإجراء المقابلات الصحفية. وقد توفرت لها فيما بعد فرصة طيبة للعمل سكرتيرة لدوجلاس سليدن صاحب موسوعة Who Is Who المعروفة التي كان يتهافت المشاهير لنشر أسمائهم فيها، فتعرفت على كثير من الأدباء والمؤلفين والنقاد والمترجمين والمستشرقين والشعراء، وأقامت نوعاً من الصداقات مع بعضهم.

ترافق أثل سليدن وزوجته وإبنه إلى جزيرة صقلية، حيث كان يُعدّ كتاباً سياحياً عن منتجعها الشتوي في ساراكوزا، وكانت مهمة أثل هي جمع المعلومات المتعلقة بتاريخ وتراث وتقاليد شعب صقلية. وفي هذه الأثناء بدأ سليدن يناديها باسم (ستيفانا) تحبباً، وبقي هذا الاسم مرافقاً لها، وأصبح الجميع يناديها به، حتى عائلتها. وقد سافرت ستيفانا مع سليدن وعائلته إلى تونس لوضع كتاب سياحي عن معالمها، وأسهمت بكتابة بعض فصوله، وأعدّت كتاباً سياحياً عن جزيرة صقلية الإيطالية. إلا أنها عشقت تونس، وشرعت بتعلم اللغة العربية، والكتابة عن سحرها وشيوخها وأمرائها وآثارها الفريدة ومدنها القديمة. وبعد انتهاء مهمتها مع سليدن عادت إلى لندن وعملت في دار للنشر والتأليف، ولكن حنينها لتونس جعلها تقترض بعض المال فعادت إليها بصحبة صديقة لها، وأقامتا في مدينة القيروان، التي كانت مهداً لروايتها الأولى (النقاب)، التي لاقت رواجاً كبيراً مما أمن لها دخلاً جيداً أتاح لها التجوال في منطقة الشرق الأوسط خلال السنين التالية، فسافرت إلى إسطنبول ثم حيفا والقدس، حيث التقت في جبل

الكرمل بعبد البهاء الرئيس الروحي والديني للبهائيين، وأقامت صداقة مع بناته. توسم عبد البهاء[1] في (ستيفانا) ذكاءً متوقداً إلا أنه لم يُفلح في إقناعها باعتناق البهائية، بالرغم من إلقائه المواعظ الدينية الطويلة عليها. وفي هذه الأثناء ألفت روايتها الثانية (جبل الله)، التي لا يزال البهائيون يعتزون بها.

تُبحر (ستيفانا) في عام 1910 من القاهرة جنوباً على متن زورق حكومي في النيل باتجاه السودان مخترقة أراضي الدنكا والشيلوك، التي تعج بالأفيال والتماسيح، وتؤلف أثناء ذلك روايتها الثالثة. وفي الخرطوم تتوثق علاقتها بمحام إنجليزي شاب يُدعى أدوين درور، ويتزوجان في لندن في إجازة الصيف التالي. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في عام 1914؛ التحق أدوين بالجيش، وعُين ضابطاً بشُعبة تابعة للاستخبارات العسكرية البريطانية في نيويورك. وانتقلت ستيفانا مع طفليها مارجريت وبيل إلى وينشستر، وهناك كتبت عدة روايات، إحداها عن الغجر. ثم لحقت بأدوين درور في مدينة البصرة، حيث عين قاضياً فيها؛ لاتقانه اللغة العربية، ولضلوعه بالقوانين التركية، ومنذ ذلك الوقت عُرفت باسم الليدي درور،

(1) هو ميرزا علي محمد رضا الشيرازي الملقب بالباب، والمولود سنة 1819. نشأ في شيراز بجنوب إيران، وأخذ شيئاً من مبادئ العلوم، ثم اشتغل بالتجارة، ولما بلغ الخامسة والعشرين ادعى أنه المهدي المنتظر، ثم تطور الأمر فادعى النبوة، ودعا إلى إصلاح الدين الإسلامي على أساس التفسير الروحي لا الحرفي للدين، فخالف أصول الدين الإسلامي، الأمر الذي أثار ثائرة رجال الدين، الذين شكوه لولاة الأمر في فارس، واعتقلته الحكومة الفارسية، وأعدمته في تبريز صلباً عام 1265هـ/ 1850م. وكان عندما جهر بدعوته عام 1844 قد التف حوله ثمانية عشر شخصاً، فأرسلهم إلى جهات مختلفة لنشر أخبار ظهوره، وتحريض الناس على الانضواء تحت لوائه. محمد الخضر حسين: (البابية أو البهائية)، مجلة نور الإسلام، العدد الخامس، المجلد الأول (جمادى الأولى 1249هـ)، ص 355. وعلى هذا فالبهائية ليست ديناً، ولكنها عقيدة باطلة اعتمدت على تشويه العقيدة الإسلامية. محمد عبده يماني: (البهائيون الحكم والموقف)، مجلة الدوحة، العدد 128، (ذو القعدة 1406هـ/ أغسطس 1986)، ص 6، 7. خوان كول: (البهائيون في إيران)، نيفين عبدالرؤوف (ترجمة)، مجلة هيستوري توداي، المجلد 40، العدد الثالث، (مارس 1990).

ومن البصـــرة انتقلت إلى بغداد بعد فرض الانتداب البريطاني على العراق في سـنة 1919، حيـث عمل السـير أدوين درور مستشـاراً قانونيـاً في وزارة العـدل العراقيـة في الفـترة (1922–1946)، ورافقته زوجتـه هناك حيث أثار اهتمامها التنوع الاثني والديني، فتوجهت لدراسة الأقليات الدينية مثل اليزيدية في كردسـتان، والصابئة المندائيين، وكانت أول باحث غربي يُجري مسـحاً ميدانياً لحياة وتقاليد وطقوس هـذه الطائفة، حيث يعيش أفرادها، واهتمت بالحياة الاجتماعية لهم، وخاصة دور المرأة الاجتماعي.

تختلـط الليـدي درور بالعراقيـين، وتدور في شـوارع وأزقة وأسـواق بغداد، وتتعـرف على طبيعة الناس، وعلى العكس مـن غيرها من زوجات الموظفين والضباط البريطانيين اللواتي كن يُمضين وقتهن باللعب والسباحة في النادي البريطاني سـافرت إلى الموصـل، وإلى الشـيخ عدي[1] والتقت باليزيديين،

(1) هو عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان. شيخ الطريقة العدوية، اشتهر في حياته بالتفوق، فتابعـه كثـيرون، ولد في (بيت فار) من أعمال بعلبك، عاش 90 عامـاً أو نحو ذلك، وتوفي 557هـ/ يتفق المؤرخـون على أنه أموي، وبذلك يفسـرون أتباعه الكثيرين وسـبب حبهم لـه. لم يبتدع طريقة جديدة، وإنمـا هـي عقيدة أهل السـنة، وقد اشـتهرت طريقته في سـورية ومصـر، وذاع صـيتها، واشـتهر عن اليزيديـين عبادة إبليس، وهـذه لم تكن في الحقيقة عبادة، وإنما هي من نتائج مقاطعة اللعن، فانجرت إلى احترام الشيطان، وعده طاووس الملائكة بسبب تحرم ذكره. فحصل من آمالهم إلى أنه ما ترك لعن إبليس إلا بمكانته وحرمته، فداخلهم غلاتهم، وشوشـوا عليهم معتقدهم، وسـاعد على ذلك المنقولات القصصية الخرافية من أنه كان أعبد الملائكة، وكان يحمل العرش وحده ستة آلاف سنة، وكان طاووس الملائكة، وهم يعظمون الشـمس، ويصـلون ثلاث ركعات عند طلوعها، وعندهم الختان والمعمودية معاً، وكتابهـم المقدس (جلوة)، وهو كتاب كتب بأسـلوب الوحي، يتضـمن خطاب الله إلى عباده، والمقصـود بهم اليزيديين. ومن كتبهم أيضاً) (صـحف رش)، أو الكتاب الأسـود، وهو كتاب تأريخي طائفي يشتمل علـى نص حـوادث القوم، وشـيء من عاداتهـم وتقاليدهم، وهو أقـرب إلى الكتـاب التاريخي. عباس العزاوي: (أصـل اليزيدية وتاريخهم 3–-) مجلة لغة العرب، الجزء 6 من السنة 9 (يونيه 1931)، ص 432–441؛ عباس العزاوي: (أصـل اليزيدية وتاريخهم 5–-) مجلة لغة العرب، الجزء 9 من السـنة 9 (سـبتمبر 1931)، ص 679–685؛ شـكري الفضـلي: (الأكراد الحاليون)، مجلة لغة العرب، الجزء 6 من السـنة 3 (تشـرين الثاني 1913)، ص 309–310؛ علي بدر: ماسنيون في بغداد: رسائل المستشرق الفرنسـي لويس ماسنيون إلى الأب أنستاس ماري الكرملي 1908–1911، (كولونيا: منشورات الجمل، 2005)، ص 223.

وذهبت حتى مضارب عشائر شمّر في بادية الموصل، واستقبلها الشيخ عجيل الياور، شيخ مشايخ عشائر شمر[1]، ورحب بها. وبتشجيع من زوجها عملت درور على جمع الموروث الفولكلوري العراقي.

تنشر الليدي درور في عام 1923 كتابها الثاني أثناء وجودها في العراق، بعنوان (على ضفاف دجلة والفرات)، ضمنته فصلاً عن المندائيين بعنوان (شعب غريب الأطوار) دونت فيه بشكل مفصل طقوس التعميد المندائية، كما أشارت إلى بعض كتبهم المقدسة. وصممت على تعلّم اللغة المندائية، فاستعانت بأحد معارفها في فينا ليحصل لها على أعمال المستشرقين الذين سبقوها بدراسة النصوص المندائية، مثل البروفسور ليدزبارسكي ونولدكه والسيوفي وآخرين؛ كخطوة أولى، وبدأت بتعليم نفسها ذاتياً اللغة المندائية. ولصعوبتها وعدم توفر قاموس خاص بها، شجعها الدكتور موسيس كاستور على البدء في إعداد قاموس مندائي. وفي عام 1937 قامت بنشر كتابها الشامل عن المندائيين بعنوان (مندائيو العراق وإيران The Mandaeans of Iraq and Iran). وركزت دراستها وبحوثها وسط هذه الجماعات، ومنحتها جامعة أوكسفورد الدكتوراه الفخرية في عام 1954، كما منحتها جامعة أوبسالا السويدية شهادة مماثلة تقديراً لجهودها الميدانية الكبيرة بين الصابئة. وفي صيف عام 1964 قلدتها الحكومة الألمانية أعلى وسام في الدراسات السامية، وهو وسام ليدزبارسكي تثميناً لما قامت به من بحوث وتراجم حول المندائية.

(1) كان أول من تولى مشيخة شمر هو الشيخ صفوق الفارس الجربا، الذي برز فترة الصراع المصري العثماني في الشام 1831–1841، وتبعه نجله فرحان باشا الجربا، تلاه الشيخ فيصل بن فرحان الجربا، ثم الشيخ دهام الهادي الجربا، فالشيخ عجيل الياور. لوثر شتاين: رحلة إلى شيخ قبيلة شمر مشعان الفيصل الجربا سنة 1962، قسم الترجمة في المؤسسة (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2011)، ص 5؛ علي عفيفي علي غازي: أثر الصراع المصري العثماني في الجزيرة العربية والشام على العراق (1831–1841)، رسالة ماجستير غير منشورة، (الإسكندرية: كلية الآداب جامعة الإسكندرية، 2009)، ص 254، 278–290.

تقــوم الليــدي درور في عام 1930 برحلــة إلى أهوار العراق برفقة المبشــرة الأمريكيــة كورنيلا دالنبيرج، أو شــريفة الأمريكانية، عضــو بعثة التبشــير الأمريكيــة العربيــة، والتي كانت تعمل لدى مستشــفى البعثــة في (العمارة) في رعاية الحوامل والنســاء بين العشائر المحيطة بها. واهتمت الليدي درور بالموروث الشــعبي، والقصص والحكايات الشــعبية، وكانت تستمع لرواتها، وتــدون ما يحكونه لها. وكانت إحداهن وتدعى (ليلى) تزورها وتجلس معها الساعات الطوال في حديقة دارها، وهي تروي لها ما تحفظه. وقد جمعت هذه الحكايات في كتاب أصــدرته عام 1931 بعنوان (حكايات شعبية من العراق Folk Tales of Iraq). وســجلت مذكراتهــا مع شــيوخ العشــائر والأديان في كتاب (في بلاد الرافدين)، وروت فيه انطباعاتها حول الأهوار وكردســتان. وفي عام 1942 اندلعت أزمة سياســية في العراق، تمثلت بحركة رشيد عالي الكيلاني ضــد حكومة نوري الســعيد الموالية لبريطانيــا، فاحتمى الموظفون البريطانيــون داخل مباني الســفارتين البريطانية والأمريكية، ووصــلت من لندن إلى الســفارة أوامر تدعو لإخلاء النســاء والأطفال البريطانيين؛ فتم إجلاؤهــم بما خــف حمله، إلا أن الليدي درور رفضــت مغادرة العراق ما لم يُســمح لها بأخذ الصــندوق الثمــين، الذي يحتوي علــى القاموس المندائي، وآلتها الكاتبة، وكتبها ومدوناتها الخاصــة بالمندائيين. وبناء على إصرارها صــرح لها بذلــك فغادرت مــع البقية إلى البصــرة، ومن ثــم بالباخرة إلى الهنــد. وأثناء وجودها في الهند اطلعت على طقوس (البارســي) الشــبيهة بالطقوســ المندائية، ودونت الكثير من الملاحظات عنها، والتي ضــمنتها في كتابها على شكل هوامش ومقارنات.

تعود الليــدي درور بعد انتهاء الحرب العالمية الثانيــة إلى بريطانيا، وتعكف علــى ترجمة الكتب والنصــوص المندائية ونشــرها، وعلى إكمــال القاموس

المندائـي. وفي هذه الأثنـاء منحت بريطانيا زوجها أدويـن درور لقب فارس لأدائـه المتميـز في خدمـة التاج البريطاني، ولكن صـحته تـردت، وتوفي في عـام 1951، فقررت (سـتيفانا) الانتقال إلى مدينة أوكسـفورد؛ حيث كان يسكن العديد من زملائها الباحثين وأصدقائها المقربين، ومن أجل أن يكون عملها مسـتوفياً كل شـروط البحث العلمي أدركت بأنه يتوجب عليها القيام بتسـجيل صـوتي للغة المندائية مباشـرة من رجال الديـن المندائيين، أثناء تأديتهم لطقوسـهم الدينية، فعادت إلى العراق سـنة 1952، وبدأت بتنفيذ هذا المشـروع بعد أن سـاعدتها شـركة نفط العراق بإحضـار آلة التسجيل جواً. كما تبرع أحد موظفي الشـركة بتزويدها بكاميرا سينمائية، وتطوعت زوجـة ذلك الموظف بمرافقتها إلى (العمـارة) ومناطق الأهوار، حيث يقيم المندائيـون لمسـاعدتها في هذا العمل، فسـافرتا إلى قلعة صـالح، وأنجزتا تسـجيل الفيلم بالرغم من مرض درور الشـديد نتيجة إصـابتها بالملاريا. وقد عرضـت درور الفيلـم أول مرة أثناء انعقاد المؤتمر الشـرقي في جامعة كامبردج عام 1953، والذي حضره جمع غفير من العلماء المختصين من كل أنحاء العالم. وفي أوكسفورد استمرت بالعمل على إنجاز القاموس المندائي، ولكنها شعرت أنها بحاجة لمن يتقن اللغات السامية، فقامت باستدعاء شاب تشيكي يُدعى رودولف ماتسوخ يعمل أستاذاً في جامعة طهران لمساعدتها في إنجاز القاموس. كان التعاون مثمراً وتكللت جهودهما المشتركة بإصدار أول قاموس للغة الآرامية المندائية، وذلك في أوائل سنة 1963.

تقضـي الليـدي درور أيامها الأخيرة بسـلام في دار رعاية المسـنين شـمال لندن، وتوفيت في فبراير 1972، عن عمر ناهز 92 عاماً، قضـتها في البحث والتأليف وترجمة النصـوص المندائية المختلفة إلـى اللغة الإنجليزية، ومن مؤلفاتها القيّمة كتاب (على ضفاف دجلة والفرات By Tigris and Euphra-

tes) وهو مجموعة فصول تنطوي على نظرات عابرة، ولكنها عامرة ونافذة إلى جوانب كثيرة من حياة البلد وسكانه العامة: اجتماعية كانت، أو روحية، وتاريخية كانت أو أثرية، ولقد كتبتها بأسلوب سلس يسير، وقصصي ممتع، في عام 1923.[1] وهو الكتاب الذي تتبعنا فيه إشاراتها للخط العربي، ونقلنا عنه ما نسخته من خطوط قابلتها في ترحالها بين شمال العراق وجنوبه.

تقول الليدي درور عن هدفها من مؤلفها عن العراق: «إن كتابي يعرض على مواطني طرفاً من القضايا المعقدة والمتباينة تبايناً لا حد له ولا نهاية، إنها قضايا تتصل بحياة شعب في مقدورنا أن نقرر مصيره. إن ترك البلد لأهله بادئ الرأي، ليس بالأمر الهين اليسير. وفي مؤلفي هذا تناولت الأماكن والحوادث التي عنيت بها على وجه أخص، أو كنت شديدة التوق إليها».[2] ثم توضح أن هدفها هو الأساطير والعادات والتقاليد، فتقول: «لقد شغفت ببيتي العراقي حباً، وشغفت بالعراقيين حباً جماً. وعنيت بالأساطير كثيراً، ولم أعن بالتاريخ إلا لماماً، وانصرفت بكليتي إلى استقصاء عادات العراقيين والخرافات الشائعة في البلد، ولم أتناول موضوع السياسة البريطانية أو معضلات الحكومة المحلية إلا قليلاً. وأستميح قرائي عذراً إن رأوني أسير وراء خيالي المنسرح، فلقد اعتدت على كتابة القصص الخيالية».[3]

الخط المسماري

تذكر الليدي درور أن الكتب في الإمبراطورية الآشورية كانت تكتب بالخط المسماري، وهو خط تصويري تشبه علاماته الشكل الجانبي للمسمار، وقد

(1) الليدي درور: على ضفاف دجلة والفرات، فؤاد جميل (ترجمة)، (لندن: شركة الوراق للنشر المحدودة، 2008)، ص 13.

(2) الليدي درور: مرجع سابق، ص 17.

(3) الليدي درور: مرجع سابق، ص 18.

يُسمى، الخط الأسفيني، لأن علاماته تشبه أيضاً الشكل الجانبي للأسفين. وتشير إلى أن السير هنري لايارد، عندما قام بالتنقيب في تلال قوينجق سنة 1845، كشف عن السر الدفين[1]، وأخرج «أثمن كنز استطاع العثور عليه أي عالم بالآشوريات، إنه خزانة كتب نينوى التي أسسها الملك المحارب سرجون في القرن السابع قبل الميلاد، والتي زاد فيها خلفاؤه من أمثال سنحاريب وأسرحدون، وإلى حفيد سرجون، آشور بانيبال، بطل الأساطير يرجع الفضل الأكبر في إنماء هذه الخزانة، فقد كان هذا الملك شغوفاً بالعلم والآثار، وفي عهده تم إيفاد الكتاب إلى بابل وآشور لاستنساخ الألواح الطينية الثمينة، وكتب المعرفة أينما وجدت، ثم جرت ترجمتها إلى الآشورية عن الألواح السومرية فلقد أصبحت اللغة السومرية آنئذ لغة ميتة، لا يستعملها إلا رجال الدين حصراً. وكانت خزانة الكتب هذه حسنة التنسيق والترتيب وتضم مؤلفات جمة من الدين والتاريخ والقواعد، وعلم النجوم، والحلول، والأساطير، والقانون والألغاز، والمزامير، والتعلقات، وما إلى ذلك، وكانت الألواح الطينية التي ينقش عليها الكتاب بالحروف المسمارية بعناية بالغة ذات أشكال مختلفة، وتتسق مع موضوعاتها، فظهر البعض منها مدوراً، ومحدوباً، وجلي أن الاختلاف هذا إنما أريد به سهولة التصنيف. وفي الخزانة ألواح عجيبة تسرد قصة الطوفان البابلية، وفوقها ألواح ملحمة جلجاميش أيضاً. وفي مقدور المرء أن يتصور أمين خزانة الكتب هذه وهو ملتح وغارق في العمل فيرسم هذه اللوحة، ويصنف تلك، أو يوبخ مساعداً على ما بدر منه من إهمال فتسبب في كسر إحدى القوائم، أو يقود الزائر إلى حيث تتكدس الألواح، التي تحتوي على ما يطلبه من معلومات. وقد يراه

(1) عن دور هنري لايارد في التنقيب عن آثار نينوى وبابل في العراق، راجع أوستن هنري لايارد: مكتشفات أطلال نينوى وبابل مع رحلات إلى أرمينيا وكردستان والصحراء، شيرين إيبش (ترجمة)، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2014).

مصــغياً إلى عبارات الإطراء والمدح على ما تضــمه الخزانة من نفائس، أو لما يتصــف به كتابه من علم ودراية، ومن حســن الطالــع أن يرعى الخزانة مثل أشــور بانيبــال (669–640 ق. م.) نصــير العلم وبطــل الحرب. ذلك أنه أضــاف بإنماء كتبها فخراً إلى فخار شــعبه، لقد خلد اسمه عن طريقها أكثر مما خلده بحروبه الدموية، أو بإقامته إمبراطورية عظيمة ســرعان ما أخذت تنهار قبيل وفاته».[1]شور ب

الخط العربي

ترصــد الليدي درور الخط العربي في جوامع ومســاجد العراق، فتذكر أنها عــثرت في خــارج جامع النبي يونــس على كتابات تحتوي علــى «آيات قرآنية كتبت بخط لماع جميل، ووضــعت في إطارات كما توضع الصور، ففي الشرق يُعنــى الناس كثــيراً بالخط الفني الجميــل، وعلى جدار الغرفة التي تضــم المدخل إلى القبو علقت قطعة من ســمك ســياف البحر Sword Fish. وهم يقسمون غير حانثين على أنه جزء بقي من الحوت الذي التقم ذا النون»[2].

تواصل الليدي درور رصد الخط العربي في جامع مرجان، والمدرسة الملحقة به[3]، والتي تُشــير إلى أنــه تم بناؤهما في القرن الرابع عشــر الميلادي، من قبل شخص يُدعى مرجان بن عبدالله الأولجاتي، (مدفون في المسجد الذي شــيده)، فتقول: «إنك ما إن تمر من بــاب الجامع حتى ترى البناء الداخلي مكوناً من طبقتين: ســفلى وعليا، ويحيط بفنــاء. أما الطبقة العليا فخصــت في الأغلــب للذيــن يشــدون في طلــب العلم. إنــه مبني بالحجارة المهندســة

(1) الليدي درور: مرجع سابق، ص 24، 25.

(2) الليدي درور: مرجع سابق، ص 28.

(3) راجع ما ذكره الرحالة جمس بكنجهام في علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي كتابات الرحالة جمس بكنجهام)، المجلة العربية، العدد 472، (جمادى الأولى 1437هـ/ فبراير 2016م)، ص 80–86.

المتينة التي امتاز بها عصره، وعليها كتابات وزخارف في الداخل والخارج. والكتابات هذه تمتاز بالدقة والجمال، ذلك أن الخط العربي من أشد ما عني به العرب وخلفوه في البلاد التي فتحوها. إن النبي (صلى الله عليه وسلم) يمنع تصوير الأحياء لذلك انصبت جهودهم الفنية على الطرز الهندسية وزخرف الكتابة. صور المستشرق الفرنسي النابه (ماسينيون) ما على الجامع من كتابات بعناية بالغة وثبتها في رسالة نفيسة نشرها عن مساجد بغداد. وعلى الجهة اليمنى من مدخل الجامع هذا (مدرسة القرآن) وفيها يحنو الدراس النابتون على (كتاب الله) ويليها مسجد المصلى. والجامع جميل في بساطته، وكل ما يزينه محراب، والكتابات التي أشرت إليها أنقل ترجمة (ماسينون) لها: (بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي وفق المطيعين لعمارة أبنية بيوت العبادات وألهم المخلصين إشادة أعمدة دور الصناعات (كذا والصواب الطاعات) ورفع ذكر الولاة بتأسيس معالم المكرمات، ودل أرباب السعادات على سلوك سبل الخيرات، ومنح المحسنين بتشريف (إن الحسنات يُذهبن السيئات) وحباهم بمال: (والمتصدقين والمتصدقات)، والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد المصطفى خير الأنام، وأصحابه مصابيح الدجى وبدور الظلام. أما بعد فيقول المفتقر إلى عفو الملك المنان، مرجان بن عبدالله بن عبدالرحمن بدل الله سيئاته: إني هاجرت في الأرض مدة سنين، وجاهدت في الطول والعرض ذات شمال ويمين، متورطاً في مخاوف البر والبحر، متورداً في متالف البرد والحر، فعلمت أن الدنيا دار الفرار وأن الآخرة هي دار القرار، وأيقنت أن أولى ما أنفقت فيه الأموال، وأحرى ما توجهت إليه همم الرجال، كان وسيلة إلى أبواب رحمته محط الرحال، وذخيرة ليوم المحاسبة والسؤال. قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له). والصدقة الجارية هي الوقف

في عمارة هذه المدرسة المسماة المرجانية وتوابعها المتصلات ببعضها في زمن المخدوم الأعظم الدارج إلى جوار ربه وجناته المستريح على أعلى غرفات جنانه الشيخ حسن نويان (النويان والجغتاي في لغة ترك المغول تطلق على الملوك والسلاطين وأمثالهم) أنار الله برهانه. ثم تمض الكتابة فتعدد الدكاكين والخانات والأراضي والبيوت والبساتين وما إلى ذلك مما حبس من غير ليُدر المال على الجامع والمدرسة (موطن العلماء ومنزل الخلفاء) وجاء فيها (ومن غير شروط هذه الأوقاف أو تصرف فيها خلاف ما شرطت في الوقفية فهو ظالم عند الله، ألا لعنة الله على الظالمين. إن هذه الكتابة في محتواها وفحواها تمثل التقوى الصادقة، والنفس المطمئنة، ومخافة الله في الدنيا والآخرة. إنها صورة صادقة لنفس أحد الأرقاء، كان عبداً مملوكاً فأصبح سيداً موسراً، إنه عصامي سعى إلى أتلاد المال في الدنيا الفانية، ثم وجد أن التقوى والإحسان خير سبيلين يؤديان به إلى تبوؤ المكان المرموق المعد للصفوة المختارة من الناس».[1]

تشير الليدي درور إلى وجود مكتبة ملحقة بجامع مرجان، فتقول: «وفي جانب من الفناء، وقبالة الجامع محل للوضوء معد للطلاب وغيرهم من المصلين. على مقربة منه سلم يؤدي إلى المكتبة. وفيها كتب قيمة. والجامع مدين إلى حد كبير لفضل الأسرة الألوسية[2]. وفي المكتبة (اسطرلاب) نحاسي فارسي الصنعة، وفيه أسماء كثير من المدن ومميلات من خشب معلقة بسلك. كما أن فيه شمعداناً نحاسياً دقيق الصنع يرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر، وعليه كتابة تشير إلى أن مهديه هو مؤسس الجامع (مرجان) نفسه. وفي أعلى الجامع نافذة جميلة لغرفة من غرف الطلاب».[3]

---

(1) الليدي درور: مرجع سابق، ص 125–127.

(2) عن الأسرة الألوسية راجع علي عفيفي علي غازي: (موقف أبي الثناء الألوسي من الصراع المصري العثماني في ثلاثينات القرن التاسع عشر)، قيد النشر.

(3) الليدي درور: مرجع سابق، ص 128.

الخط الكوفي

تُميز الليدي درور الخـط الكوفي في جامع العاقولي ببغداد، فتقول: «وهناك زقاق صـغير يتلوى في جـوف المدينة مؤديـاً إلى جامع أثـري آخر هو جامع العاقـولي، ومؤسسـه رجـل يختلف مـن حيث الجبلـة عن مرجان مؤسـس الجامع السـابق ذكره، إنه عبدالله العاقولي المولود سنة 1240 والمتوفي سنة 1327كان قاضياً ومدرساً في المدرسـة المستنصرية ولقراراته التي يتخذها في دقائق قضـايا الشـريعة نفوذ وقوة، فهي مقبولة ملزمـة عند كل الناس. ولقد دفن عند المغرب بحضـور القضـاة في بيته الذي أوقفه على شيخ يعلم عشـرة أيتام صـغار (القـرآن)، ولقد أعيد بناء الجامع مـرات عديدة. أما الغرفة التي تضم القبر الخشبي المزخرف الذي يضم رفات مؤسسه، والتي يوصـل إليها من فناء تقوم فيه شـجرة سـدر، فلم تتغير إلا قليلاً على أغلب الاحتمـالات. وعلـى القبر كتابـة كوفية مزخرفـة جميلة جداً، ولم يسـتطع أحـد قراءتها لمدة طويلـة، إنها مثال ممتع على اسـتعمال الحروف العربية في الزخرفـة. والظاهـر أن أحد ألواحـه أقدم من الآخـر، ولعله منقول من قـبر أقدم مـن قبر العاقولي. ونقشـت على القـبر الآيتان الكريمتان بسـم الله الرحمـن الرحيـم (يبشـرهم ربهم برحمـة منه ورضـوان وجنات لهم فيهـا نعيم مقيـم، خالدين فيها أبداً) (التوبة: الآيتان 21–22)، بسـم الله الرحمن الرحيم (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أولئك أصـحاب الجنة خالدين فيهـا جزاءً بما كانوا يعملون) (الأحقاف: الآيتان 13، 14)».[1]

تذكر الليدي درور أنها شاهدت كتابات بالخط الكوفي على قبر الإمام يحيى بالموصـل، فتقول: «وفي مطلع القرن الثالث عشـر عاش في الموصل السلطان

(1) الليدي درور: مرجع سابق، ص 128، 129.

بدر الدين لؤلؤ، (وهو ينتسب إلى أسرة عطار بك) وكان رجلاً على جانب من التقوى وحب العمارة. وكان قصره قائماً على ضفة النهر وضمن سور المدينة الشمالي وكجزء منه، وما زالت زخرفة الظهارة Stucco Ornament (آخر طبقات البياض في جدار) باقية على العقد، وخير شاهد على ما كان عليه البناء آنئذ من جودة ومتانة. ويقوم قبر السلطان على مقربة من القصر وبجانبه قبر الست فاطمة (وهي مقبرة السادة) رحمه الله لقد أغنى المدينة كثيراً. وبنى بدر الدين لؤلؤ قبر الإمام يحيى على مقربة من النهر، ومزاره جميل وصغير، وتعلوه منارة هرمية مثمنة الأضلاع والزوايا، وهي ليست على غرار القبب المعتادة. وعلى واجهة المزار كتابات عربية بالخط الكوفي. وتفيد إحدى هذه الكتابات أن العبد الفقير لؤلؤ بن عبدالله، ملك الموصل، بنى الجامع ليفيد منه المؤمنون وينعم هو برضاء الله. وعلى جانب من القبر تاريخ بنائه وهو 619 هجرية».[1]

(1) الليدي درور: مرجع سابق، ص 146، 147.

المصادر والمراجع

أولاً: باللغة العربية ومعربة

1 - إبراهيم الحيدري: صورة الشرق في عيون الغرب، (بيروت: شركة دار الساقي، 1996).

2 - ابن النديم: الفهرست، (بيروت: دار النوادر، 2012).

3 - أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني: مختصر كتاب البلدان، (ليدن: مطابع بريل، 1302هـ).

4 - أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: فتوح البلدان، عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع (تحقيق)، (بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1987).

5 - أحمد خليل عطوي: دولة الإمارات العربية المتحدة، نشأتها وتطورها (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، 1988).

6 - أدولفو ريفادينيرا: من سيلان إلى دمشق، صالح علماني (ترجمة)، (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2009).

7 - أسعد عيد الفارس: (الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية أهدافهم وغاياتهم)، في كتاب دارة الملك عبدالعزيز: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية الجزء الأول، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 2000).

8 - الليدي آن بلنت: قبائل بدو الفرات عام 1878، أسعد الفارس؛ نضال خضر معيوف (ترجمة)، (دمشق: دار الملاح للطباعة والنشر، 1991).

9 - الليدي درور: على ضفاف دجلة والفرات، فؤاد جميل (ترجمة)، (لندن: شركة الوراق للنشر المحدودة، 2008).

10 - إليزابيث بيرغوين: جيرتروود بيل من أوراقها الشخصية 1914-1926، نمير عباس مظفر (ترجمة)، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002).

11 - أندريه لومير: (أصل الأبجدية السامية العربية وكتابتها)، قاسم عبده قاسم (ترجمة)، في كتاب خالد عزب (تحرير): تاريخ الكتابة من التعبير التصويري إلى الوسائط الإعلامية المتعددة، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2005).

12 - أنس محمد رأفت محمد سعيد: المحاور النحوية جمع ودراسة موضوعية، إبراهيم عوض وعلي عفيفي علي غازي (تقديم)، (الدوحة: المؤلف، 2017).

13 - أوستن هنري لايارد: مكتشفات أطلال نينوى وبابل مع رحلات إلى أرمينيا وكردستان والصحراء، شيرين إيبش (ترجمة)، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2014).

14 - باسكال فيرنو: (الكتابات في مصر القديمة)، خالد داوود (ترجمة)، في كتاب خالد عزب (تحرير): تاريخ الكتابة من التعبير التصويري إلى الوسائط الإعلامية المتعددة، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2005).

15 - بكنكهام: (رحلة بكنكهام، وصف بغداد)، محمد علي حلاوي (ترجمة)، في كتاب بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر، 2007).

16 - بيتر برنيث: بلاد العرب القاصية، رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب، خالد أسعد عيسى؛ أحمد غسان سبانو (ترجمة)، (بيروت: دار قتيبة للنشر والتوزيع، 1990).

17 - جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق سنة 1816، سليم طه التكريتي (ترجمة)، 2ج، (بغداد: مطبعة أسعد، 1968).

18 - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج8، (بغداد: جامعة بغداد، 1993).

19 - جيمس بيلي فريزر: رحلة فريزر إلى بغداد سنة 1834، جعفر الخياط (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006).

20 - حبيب أفندي بيداش: الخط والخطاطون، سامية محمد جلال (ترجمة) الصفصافي أحمد القطوري (مراجعة)، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010).

21 – حسن أحمد محمود: الكندي المؤرخ وكتابه الولاة والقضاة، (القاهرة: الدار العربية للتأليف والترجمة، د. ت.).

22 – ربحي مصطفى عليان: المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، (عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 1999).

23 – ستيفن همسلي لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، جعفر الخياط (ترجمة)، (بغداد: مكتبة اليقظة العربية، 1985).

24 – سلطان بن محمد القاسمي: جون مالكلولم والقاعدة التجارية البريطانية في الخليج 1800، (الشارقة: الخليج للصحافة والطباعة والنشر، 1994).

25 – سمير عطا الله: قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية والخليج، (بيروت: دار الساقي، 1994).

26 – سهيل قاشا: الموصل في مذكرات الرحالة الأجانب خلال الحكم العثماني، (بغداد: شركة دار الوراق للنشر المحدودة، 2009).

27 – سهيلة ياسين الجبوري: الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق، (بغداد: مطبعة الزهراء، 1962).

28 – سوانسن كوبر: رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك من البحر المتوسط إلى بومبي عن طريق مصر والشام والعراق والخليج العربي في 1893م، صادق عبد الركابي (ترجمة)، (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2004).

29 – شارل هوبير: رحلة في الجزيرة العربية الوسطى 1878–1882، إليسار سعادة (ترجمة)، (بيروت: كتب للنشر والتوزيع، 2003).

30 – طارق بن سعيد القحطاني: أسرار الحروف وحساب الجُمّل، رسالة ماجستير غير منشورة، (مكة المكرمة: كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، 2009).

31 – عبدالرحمن بن خلدون: مقدمة العلامة ابن خلدون، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي، د. ت.).

32 – علي بدر: ماسنيون في بغداد: رسائل المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون إلى الأب أنستاس ماري الكرملي 1908–1911، (كولونيا: منشورات الجمل، 2005).

33 – علي عبدالله فارس: شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها في تاريخ الخليج العربي 1600–1858، (الشارقة: المسار للدراسات والاستشارات والنشر، 1997).

34 – علي عفيفي علي غازي: رؤية الرحالة لقيم وعادات عشائر العراق 1800–1958، رسالة دكتوراه غير منشورة (دمنهور: كلية الآداب جامعة دمنهور، 2014).

35 – علي عفيفي علي غازي: أثر الصراع المصري العثماني في الجزيرة العربية والشام على العراق (1831–1841)، رسالة ماجستير غير منشورة، (الإسكندرية: كلية الآداب جامعة الإسكندرية، 2009).

36 – علي عفيفي علي غازي: الصراع الأجنبي على العراق والجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، (بيروت: دار الرافدين للطباعة والنشر، 2015).

37 – عمار السنجري: البدو بعيون غربية، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2008).

38 – عوض البادي: الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، نص رحلة البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نجد عام 1893م/ 1310هـ، (الرياض: شركة دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، 2002).

39 – عوض البادي: الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية (منطقة الجوف ووادي السرحان) 1845–1922، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002).

40 – فرانسيس ديروش: (الكتابة العربية)، محمد عبدالستار عثمان (ترجمة)، في كتاب خالد عزب (تحرير): تاريخ الكتابة من التعبير التصويري إلى الوسائط الإعلامية المتعددة، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2005).

41 – فراوكة هيردبي: (التحديات الواقعة والمتخيلة لوضع بريطانيا في الخليج)، في كتاب عبيد علي بن بطي (محرر): كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور، (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1996).

42 – فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى: الحضر مدينة الشمس، (بغداد: مديرية الآثار العامة بوزارة الإعلام، 1974).

43 – كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، محمود حسين الأمين (ترجمة)، (بغداد: شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، 1965).

44 – كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مصطفى جواد (ترجمة)، في كتاب بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر المحدودة، 2007).

45 – كلوديوس جيمس ريج: رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام 1820 إلى بغداد وكردستان وإيران، اللواء بهاء الدين نوري (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2008).

46 – لوثر شتاين: رحلة إلى شيخ قبيلة شمر مشعان الفيصل الجربا سنة 1962، قسم الترجمة في المؤسسة (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2011).

47 – لوي جاك روسو: رحلة إلى الجزيرة العربية سنة 1808، بطرس حداد (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2010).

48 – ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل 1899–1914، رزق الله بطرس (ترجمة)، (بيروت: دار الوراق للنشر المحدودة، 2008).

49 – ماكس أوبنهايم: رحلة إلى مسقط عبر الخليج، محمود كبيبو (ترجمة) (بيروت: دار الوراق للنشر والتوزيع، 2009).

50 – ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج: لبنان وسوريا، محمود كبيبو (ترجمة)، (لندن: دار الوراق للنشر، 2008).

51 – ماكس فون أوبنهايم: البدو، الجزء الأول: ما بين النهرين (العراق الشمالي) وسورية، مشيل كيلو ومحمود كبيبو (ترجمة)، (لندن: شركة دار الوراق للنشر، 2007).

52 – محسن فتوني: موسوعة الخط العربي والزخرفة الإسلامية (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2002).

53 – محمد بن موسى بن علي الشافعي المعروف بابن البصيص: شرح قصيدة ابن البواب في علم صناعة الكتاب، يوسف ذنون (تحقيق)، (بيروت: دار النوادر، 2008).

54 – محمد طاهر الكردي المكي: تاريخ الخط العربي وآدابه، (القاهرة: مكتبة الهلال، 1939).

55 – محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1978).

56 – مدام ديولافوا: رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة وبغداد 1881م/ 1299هـ، علي البصري (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2007).

57 – نيقولا سيوفي: رحلة نيقولا سيوفي 1873، تيسير خلف (تحقيق)، (دمشق: التكوين للتأليف والترجمة والنشر، 2009).

58 – هنري فوستر: نشأة العراق الحديث، سليم طه التكريتي (ترجمة)، ج1، (بغداد: الفجر للنشر والتوزيع، 1989).

59 – وليد كاصد الزيدي: بغداد في مذكرات رحالة فرنسيين مطلع القرن العشرين،(أبو ظبي: نادي تراث، الإمارات، 2013).

60 – ويليام ب. سيبروك: مغامرات في بلاد العرب، عارف حديفة ونبيل حاتم (ترجمة)، (دمشق: دار المدى للنشر والتوزيع، 2006).

61 – ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، (بيروت: دار صادر، 1977).

62 – يحيى وهيب الجبوري: الخط والكتابة في الحضارة العربية، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994).

63 – يوسف ذنون: الكتابة وفن الخط العربي النشأة والتطور، (بيروت: دار النوادر، 2012).

64 – يوسف ذنون: زينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)، (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث، 2015).

65 – يوليوس أويتنج: رحلة داخل الجزيرة العربية، سعيد بن فايز السعيد (ترجمة)، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 1999).

ثانياً: مقالات في دوريات

66 – ألبرت تايلا: (الحروف الهجائية في الزخرفة الألمانية الحديثة)، مجلة فكر وفن، العدد الثالث، (1964).

67 – بكنكهام: (رحلة بكنكهام، وصف بغداد)، محمد علي حلاوي (ترجمة)، في كتاب بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر، 2007).

68 – جاسم محمد جرجيس: (البدو)، مجلة ليوا، العدد 13، (يناير 2005).

69 – حسن الباشا: (أثر العروبة والإسلام في نشأة فنون العمارة والزخرفة الإسلامية)، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الأولى، (ذي الحجة 1395هـ/ ديسمبر 1975).

70 – خالد الاغا: (القرآن.. وإبداعات الخط العربي)، مجلة أخبار الأسبوع، العدد 351، (6 مارس 1993).

71 – خوان كول: (البهائيون في إيران)، نيفين عبدالرؤوف (ترجمة)، مجلة هيستوري توداي، المجلد 40، العدد الثالث، (مارس 1990).

72 – زكي محمد حسن: (تراث الفنون الإسلامية في البلقان وأوروبا الوسطى)، مجلة الكتاب، المجلد الثاني، الجزء العاشر، (أغسطس 1946).

73 – زكي محمد حسن: (جوهر الفنون الإسلامية)، مجلة الكتاب، المجلد الأول، الجزء الأول، (ذو القعدة 1364هـ/ نوفمبر 1945م).

74 – سوزان شكرون: (علاقة الزخرفة والحروفية بالفنون التشكيلية في الغرب والعالم العربي)، مجلة العربي، العدد 635، (شوال 1432هـ/ أكتوبر 2011م).

75 – سيد حسب الله: (الحروف العربية وعلاقتها بالحساب)، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الخامسة، (ربيع الثاني 1400هـ/ مارس 1980).

76 – شريف يوسف: (اكتشافات الرواد والرحالين الغربيين في شبه الجزيرة العربية وأثر العرب في علم الجغرافية)، مجلة المورد، المجلد 11، العدد الثاني (صيف 1982).

77 – شكري الفضلي: (الأكراد الحاليون)، مجلة لغة العرب، الجزء 6 من السنة 3 (تشرين الثاني 1913).

78 – صلاح أحمد الطنوبي: (المكتبات في الإسلام)، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 271، (رجب 1407هـ/ مارس 1987م).

79 – عباس العزاوي: (أصل اليزيدية وتاريخهم 3--) مجلة لغة العرب، الجزء 6 من السنة 9 (يونيه 1931).

80 – عباس العزاوي: (أصل اليزيدية وتاريخهم 5--) مجلة لغة العرب، الجزء 9 من السنة 9 (سبتمبر 1931).

81 – عبدالعزيز العنزي: (رحلة أويتنج من الشمال وحتى مدائن صالح)، مجلة ترحال، العدد 58، (ربيع الآخر 1436هـ/ فبراير 2015م).

82 – عبدالمنعم عبدالحليم سيد: (دور أسلاف عرب شمال الجزيرة العربية في نشأة الخط المسند اليمني القديم)، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الثامنة، (شوال 1402هـ/ يوليو 1982م).

83 – علي عفيفي علي غازي: (الخطوط العربية الأولى: نشأتها وتطورها)، صحيفة الحياة، العدد 17571، (14 مايو 2011).

84 – علي عفيفي علي غازي: (رحالة زاروا الإمارات – كارستن نيبور)، مجلة الإمارات الثقافية، العدد 46، (يونيو 2016)

85 – علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي.. ذاكرة جمالية ومعين للباحثين من كتابات الرحالة يوليوس أويتنج)، مجلة ومضات، العدد 26 (مايو 2016).

86 – علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي في كتابات الرحالة جمس بكنجهام)، المجلة العربية، العدد 472، (جمادى الأولى 1437هـ/ فبراير 2016م)

87 – علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي في كتابات الرحالة كارستن نيبور)، مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني، (2016).

88 – علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي في كتابات الرحالة كارستن نيبور)، مجلة أفكار، العدد 324، (كانون الثاني 2016).

89 – علي عفيفي علي غازي: (رحالة زاروا قطر (7) كارستن نيبور)، مجلة الدانة،العدد 45، (أكتوبر 2015).

90 – علي عفيفي علي غازي: (منهج النقد الفني للوحات الخطية)، المجلة العربية، العدد 404، (رمضان 1431هـ/ سبتمبر2010م).

91 – علي عفيفي علي غازي (نشأة وتطور الخط العربي في الإسلام)، المجلة العربية، العدد 405، (شوال 1431هـ/ سبتمبر 2010م).

92 - قيس جواد العزاوي: (النجف كما وصفها بعض المستشرقين الفرنسيين)، جريدة الجريدة، (13 أبريل 2006).

93 - كارستن نيبور: (رحلة نيبور في العراق في القرن الثامن عشر)، محمود حسين الأمين (ترجمة) ، مجلة سومر، المجلد 9، الجزء الأول (1953).

94 - كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مصطفى جواد (ترجمة)، مجلة سومر، المجلد 20، الجزء الأول والثاني (1964).

95 - كامل إبراهيم: (فن الخط العربي)، مجلة فكر وفن، العدد 38، (1983).

96 - لؤي داخل: (فن الزخرفة الإسلامية)، مجلة فكر وفن، العدد 56، (1993).

97 - ماهر أحمد عيسى: (لماذا تحول المصريون إلى اللغة العربية؟)، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد الأول، (يناير 2016).

98 - محمد الخضر حسين: (البابية أو البهائية)، مجلة نور الإسلام، العدد الخامس، المجلد الأول (جمادى الأولى 1249هـ).

99 - محمد بوشعيب الصغير: (زخرفة المخطوطات مفخرة الحضارة الإسلامية)، جريدة الفنون، العدد 84، (ديسمبر 2007).

100 - محمد حميد الله: (صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة)، مجلة فكر وفن، العدد الثالث، (1964).

101 - محمد عبده يماني: (البهائيون الحكم والموقف)، مجلة الدوحة، العدد 128، (ذو القعدة 1406هـ/ أغسطس 1986).

102 - نجاة شاكر محمد زيدان: (أثر العقيدة الإسلامية في فن الزخرفة عند المسلمين)، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الثالثة، (صفر 1398هـ/ يناير 1978م).

103 - هلال الحجري: (مدخل إلى أدب الرحلات في عمان، دراسة وصفية للرحالة البريطانيين 1626-1970)، مجلة نزوى، العدد 35، (يوليو 2003).

104 - يحيى سويلم: (بدائع الفنون الإسلامية وتجلياتها)، مجلة جريدة الفنون، العدد 82، (أكتوبر 2007).

105 - يوسف ذنون: (الكتابة الحضرية وأثرها في نشوء الكتابة العربية)، مجلة فنون إسلامية، العدد الأول، (خريف 2009).

106 - يوسف ذنون: (الخط المكي)، مجلة حروف عربية، العدد 37، (محرم 1437هـ/ أكتوبر 2015م).

107 - يوسف محمد عبدالله: (صور أدبية من خلال الشواهد الأثرية في جزيرة العرب قبل الإسلام)، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد الثاني، (يونيو 2016).

ثالثاً: باللغات الأجنبية

1 - Bill McGlone(and others): Petroglyphs of Southeast Colorado and the Oklahoma Panhandle، (California: Mithare Production Corporation، 1994).

2 - Hoskins. H.L: British routs to India، (London:Longmans Green، 1928).

3 - Lady Anne Blunt: Bedouin Tribes of the Euphrates، (New York: Harpers & Brothers Publisher، 1879).

يلعب الخط العربي دوراً في التربية الإسلامية، ويتصدى للأصول الفكرية الكامنة وراء مناهج التعليم؛ إذ يحتل مكان الصدارة بين الفنون الإسلامية؛ لأنه من الفنون المتطورة عند المسلمين، وخير شاهد على براعتهم.

وفي هذا الكتاب حديث مسهب عن نشأة هذا الفن ومراحل تطوره عبر العصور، إضافة إلى أبرز مرئيات ومقولات وتعليقات الرحالة المستشرقين خلال تجوالهم في أرجاء الوطن العربي أو حتى في تلك البلدان التي كانت خاضعة لحكم العرب المسلمين في حقبة من حقب التاريخ.